❀ ❀ ❀

تفسير سورة اقرأ

وهي أول شيء نزل من القرآن .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن الزهري، عن عُرْوة، عن عائشة قالت: أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه ـ وهو: التعبد ـ الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتُزَوِّد لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ: «فقلت: ما أنا بقارىء». قال: «فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارىء. فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ حتى بلغ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾» قال:

فرجع بها ترجُف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني». فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوْع. فقال: «يا خديجة، ما لي» وأخبرها الخبر وقال: «قد خشيت على نفسي». فقالت له: كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدقُ الحديث، وتحمل الكلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزى بن قُصي ـ وهو ابن عم خديجة، أخي أبيها، وكان امرءً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ـ فقالت خديجة: أيْ ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي، ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أُنزل على موسى، ليتني فيها جذعاً أكونُ حياً حين يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «أو مخرجيَّ هُم؟». فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يُدركني يومك أنصُرْكَ نصراً مُؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن تُوُفّي، وفتر الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنا ـ حزناً غدا منه مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدى له جبريل فقال: يا محمد، إنك رسولُ الله حقاً. فيسكن بذلك جأشه، وتقرُّ نفسه فيرجع. فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك. وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري، وقد تكلمنا على هذا الحديث من جهة سنده ومتنه ومعانيه في أول شرحنا للبخاري مستقصى، فمن أراده فهو هناك محرر، ولله الحمد والمنة. فأول شيء نزل من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات، وهُنَّ أول رحمة رحم الله بها العباد، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم. وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة، وأن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم، فشرفه وكرمه بالعلم، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة، والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان، وتارة يكون في الكتابة بالبنان، ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس، فلهذا قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾. وفي الأثر: قيدوا العلم بالكتابة. وفيه أيضاً: «من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يكن يعلم».

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله. ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾ أي: إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك: من أين جمعته؟ وفيم صرفته؟ قال ابن أبي حاتم: حدثنا زيد بن إسماعيل الصائغ، حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو عُمَيس، عن عون قال: قال عبد الله: منهومان لا يشبعان، صاحب العلم وصاحب الدنيا، ولا يستويان، فأما صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان. قال: ثم قرأ عبد الله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾. وقال للآخر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. وقد رُوي هذا مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ: «منهومان لا يشبعان: طالب علم، وطالب دنيا». ثم قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾: نزلت في أبي جهل، لعنه الله، توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت، فوعظه الله تعالى بالتي هي أحسن أولاً، فقال: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١﴾ أي: فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله، أو ﴿أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ بقوله، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته؛ ولهذا قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ أي: أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء. ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي: لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ أي: لنسمنَّها سواداً يوم القيامة. ثم قال: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾ يعني: ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطئة في فعالها. ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧﴾ أي: قومه وعشيرته، أي: ليدعهم يستنصر بهم، ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨﴾: وهم ملائكة العذاب، حتى يعلم من يغلبُ: أحزبُنا أم حزبه. قال البخاري: حدثني يحيى، حدثنا عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن عبد الكريم الجزري، عن عكرمة، عن ابن عباس: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عُنقه. فبلغ النبي ﷺ، فقال: «لئن فعله لأخذته الملائكة». ثم قال: تابعه عمرو بن خالد، عن عبيد الله ـ يعني ابن عمرو ـ عن عبد الكريم. وكذا رواه الترمذي والنسائي في تفسيرهما من طريق عبد الرزاق، به. وهكذا رواه ابن جرير، عن أبي كُرَيْب، عن زكريا بن عديّ، عن عبيد الله بن عمرو، به.

وروى أحمد، والترمذي، وابن جرير ـ وهذا لفظه ـ من طريق داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان

رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هاشم فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟ - وتوعَّده - فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً! فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾ قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل بن زيد أبو يزيد، حدثنا فُرات، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله يصلي عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً». وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق، عن الوليد بن العيزار، عن ابن عباس قال: قال أبو جهل: لئن عاد محمد يصلي عند المقام لأقتلنه. فأنزل الله، ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾، حتى بلغ هذه الآية: ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾. فجاء النبي ﷺ فصلى فقيل: ما يمنعك؟ قال: قد اسودّ ما بيني وبينه من الكتائب. قال ابن عباس: والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه. وقال ابن جرير: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر، عن أبيه، حدثنا نعيم بن أبي هند، عن أبي حازم، عن أبي هُريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فقال: واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته، ولأعفِّرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يُصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة. قال: فقال رسول الله: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً». قال: وأنزل الله - لا أدري في حديث أبي هريرة أم لا -: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ إلى آخر السورة. وقد رواه أحمد بن حنبل، ومسلم، والنسائي، وابن أبي حاتم، من حديث معتمر بن سليمان، به. وقوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ يعني: يا محمد، لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها، وصلِّ حيث شئت ولا تباله؛ فإن الله حافظك وناصرك، وهو يعصمك من الناس، ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾، كما ثبت في الصحيح - عند مسلم - من طريق عبد الله بن وهب، عن عمرو بن الحارث، عن عمارة بن غزية، عن سُميّ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء». وتقدم أيضاً: أن رسول الله ﷺ كان يسجد في: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ و ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾.

آخر تفسير سورة «اقرأ»

❀ ❀ ❀

(٩٦) سورة العلق مكية
وآياتها تسع عشرة

زعم المفسرون أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن وقال آخرون الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ اعلم أن في الباء من قوله (باسم ربك) قولين (أحدهما) قال أبو عبيدة الباء زائدة ، والمعنى : اقرأ اسم ربك ، كما قال الأخطل :

هن الحرائر لا ربات أخمرة   سود المحاجر لا يقرأن بالسور

ومعنى اقرأ اسم ربك ، أى أذكر اسمه ، وهذا القول ضعيف لوجوه (أحدها) أنه لو كان معناه اذكر اسم ربك ما حسن منه أن يقول ما أنا بقارىء ، أى لا أذكر اسم ربى (وثانيها) أن هذا الأمر لا يليق بالرسول ، لأنه ما كان له شغل سوى ذكر الله ، فكيف يأمره بأن يشتغل بما كان مشغولا به أبداً (وثالثها) أن فيه تضييع الباء من غير فائدة .

﴿ القول الثانى ﴾ أن المراد من قوله (اقرأ) أى اقرأ القرآن ، إذ القراءة لا تستعمل إلا فيه قال تعالى (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) وقال (وقرآناً فرقنا لتقرأه على الناس على مكث) وقوله (باسم ربك) يحتمل وجوهاً (أحدها) أن يكون محل باسم ربك النصب على الحال فيكون التقدير : اقرأ القرآن مفتتحاً باسم ربك أى قل بسم الله ثم اقرأ ، وفى هذا دلالة على أنه يجب قراءة التسمية فى ابتداء كل سورة كما أنزل الله تعالى وأمر به ، وفى هذه الآية رد على من لا يرى ذلك واجباً ولا يبتدىء بها (وثانيها) أن يكون المعنى اقرأ القرآن مستعيناً باسم ربك كأنه يجعل الاسم آلة فيما يحاوله من أمر الدين والدنيا ، ونظيره كتبت بالقلم ، وتحقيقه أنه لما قال له (اقرأ) فقال له لست بقارىء ، فقال (اقرأ باسم ربك) أى استعن باسم ربك واتخذه آلة فى تحصيل هذا الذى عسر عليك (وثالثها) أن قوله (اقرأ باسم ربك) أى اجعل هذا الفعل لله وافعله لأجله كما تقول بنيت هذه الدار باسم الأمير وصنعت هذا الكتاب باسم الوزير ولأجله ، فإن العبادة

إذا صارت لله تعالى ، فكيف يجترىء الشيطان أن يتصرف فيما هو لله تعالى ؟ فإن قيل كيف يستمر هذا التأويل فى قولك قبل الأكل بسم الله ، وكذا قبل كل فعل مباح ؟ قلنا فيه وجهان (أحدهما) أن ذلك إضافة مجازية كما تضيف ضيعتك إلى بعض الكبار لتدفع بذلك ظلم الظلمة ، كذا تضيف فعلك إلى الله ليقطع الشيطان طمعه عن مشاركتك ، فقد روى أن من لم يذكر اسم الله شاركه الشيطان فى ذلك الطعام (والثانى) أنه ربما استعان بذلك المباح على التقوى على طاعة الله فيصير المباح طاعة فيصح ذلك التأويل فيه .

أما قوله (ربك) ففيه سؤالان :

﴿أحدها﴾ وهو أن الرب من صفات الفعل ، والله من أسماء الذات وأسماء الذات أشرف من أسماء الفعل ، ولأنا قد دللنا بالوجوه الكثيرة على أن اسم الله أشرف من اسم الرب ، ثم إنه تعالى قال ههنا (باسم ربك) ولم يقل اقرأ باسم الله كما قال فى التسمية المعروفة (بسم الله الرحمن الرحيم) (وجوابه) أنه أمر بالعبادة ، وبصفات الذات ، وهو لا يستوجب شيئاً ، وإنما يستوجب العبادة بصفات الفعل ، فكان ذلك أبلغ فى الحث على الطاعة ، ولأن هذه السورة كانت من أوائل ما نزل على ما كان الرسول عليه السلام قد فزع فاستماله ليزول الفزع ، فقال هو الذى رباك فكيف يفزعك ؟ فأفاد هذا الحرف معنيين (أحدهما) ربيتك فلزمك القضاء فلا تتكاسل (والثانى) أن الشروع ملزم للاتمام ، وقد ربيتك منذ كذا فكيف أضيعك ، أى حين كنت علقا لم أدع تربيتك فبعد أن صرت خلقاً نفيساً موحداً عارفاً بى كيف أضيعك !

﴿السؤال الثانى﴾ ما الحكمة فى أنه أضاف ذاته إليه ، فقال (باسم ربك) ؟ (الجواب) تارة يضيف ذاته إليه بالربوبية كما ههنا ، وتارة يضيفه إلى نفسه بالعبودية ، أسرى بعبده ، نظيره قوله عليه السلام «على منى وأنا منه» كأنه تعالى يقول هو لى وأنا له ، يقرره قوله تعالى (من يطع الرسول فقد أطاع الله) أو نقول إضافة ذاته إلى عبده أحسن من إضافة العبد إليه ، إذ قد علم فى الشاهد أن من له ابنان ينفعه أكبرهما دون الأصغر ، يقول هو ابنى فحسب لما أنه ينال منه المنفعة ، فيقول الرب تعالى المنفعة تصل منى إليك ، ولم تصل منك إلى خدمة ولا طاعة إلى الآن ، فأقول أنا لك ولا أقول أنت لى ، ثم إذا أتيت بما طالبته منك من طاعة أو توبة أضفتك إلى نفسى فقلت أنزل على عبده (ياعبادى الذين أسرفوا) .

﴿السؤال الثالث﴾ لم ذكر عقيب قوله (ربك) قوله (الذى خلق) ؟ (الجواب) كأن العبد يقول ما الدليل على أنك ربى ؟ فيقول لأنك كنت بذاتك وصفاتك معدوما . ثم صرت موجوداً فلا بد لك فى ذاتك وصفاتك من خالق ، وهذا الخلق والإيجاد تربية فدل ذلك على أنى ربك وأنت مربوبى .

ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ فى تفسير هذه الآية ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون قوله (الذى خلق) لايقدر له مفعول ، ويكون المعنى أنه الذى حصل منه الخلق واستأثر به لاخالق سواه (والثانى) أن يقدر له مفعول ويكون المعنى أنه الذى خلق كل شىء ، فيتناول كل مخلوق ، لأنه مطلق ، فليس حمله على البعض أولى من حمله على الباقى ، كقولنا الله أكبر ، أى من كل شىء ، ثم قوله بعد ذلك (خلق الإنسان من علق) تخصيص للانسان بالذكر من بين جملة المخلوقات ، إما لأن التنزيل إليه أو لأنه أشرف ما على وجه الأرض (والثالث) أن يكون قوله (اقرأ باسم ربك الذى خلق) مبهماً ثم فسره بقوله (خلق الإنسان من علق) تفخيما لخلق الانسان ودلالة على عجيب فطرته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج الأصحاب بهذه الآية على أنه لا خالق غير الله تعالى ، قالوا لأنه سبحانه جعل الخالقية صفة مميزة لذات الله تعالى عن سائر الذوات ، وكل صفة هذا شأنها فإنه يستحيل وقوع الشركة فيها ، قالوا وبهذا الطريق عرفنا أن خاصية الإلهية هى القدرة على الاختراع ومما يؤكد ذلك أن فرعون لما طلب حقيقة الإله ، فقال : (وما رب العالمين) قال موسى (ربكم ورب ابائكم الأولين) والربوبية إشارة إلى الخالقية التى ذكرها ههنا ، وكل ذلك يدل على قولنا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اتفق المتكلمون على أن أول الواجبات معرفة الله تعالى ، أو النظر فى معرفة الله أو القصد إلى ذلك النظر على الاختلاف المشهور فيما بينهم ، ثم إن الحكيم سبحانه لما أراد أن يبعثه رسولا إلى المشركين ، لو قال له : اقرأ باسم ربك الذى لاشريك له ، لأبوا أن يقبلوا ذلك منه ، لكنه تعالى قدم ذلك مقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به كما يحكى إن زفر لما بعثه أبو حنيفة إلى البصرة لتقرير مذهبه ، فلما ذكر أبو حنيفة زيفوه ولم يلتفتوا إليه ، فرجع إلى أبى حنيفة . وأخبره بذلك ، فقال إنك لم تعرف طريق التبليغ ، لكن ارجع إليهم ، واذكر فى المسألة أقاويل أئمتهم ثم بين ضعفها ، ثم قل بعد ذلك ههنا قول آخر ، واذكر قولى وحجتى ، فإذا تمكن ذلك فى قلبهم ، فقل هذا قول أبى حنيفة لأنهم حينئذ يستحيون فلا يردون ، فكذا ههنا أن الحق سبحانه يقول ، إن هؤلاء عباد الأوثان ، فلو أثنيت على وأعرضت عن الأوثان لأبوا ذلك ، لكن اذكر لهم أنهم هم الذين خلقوا من العلقة فلا يمكنهم إنكاره ، ثم قل ولا بد للفعل من فاعل فلا يمكنهم أن يضيفوا ذلك إلى الوثن لعلمهم بأنهم نحتوه ، فبهذا التدريج يقرون بأنى أنا المستحق للثناء دون الأوثان ، كما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) ثم لما صارت الإلهية موقوفة على الخالقية وحصل القطع بأن من لم يخلق لم يكن إلهاً ، فلهذا قال تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق) ودلت الآية على أن القول بالطبع باطل ، لأن المؤثر فيه إن كان حادثاً افتقر إلى مؤثر آخر ، وإن كان قديماً فإما أن يكون موجباً

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾

أو قادراً ، فإن كان موجباً لزم أن يقارنه الأثر فلم يبق إلا أنه مختار وهو عالم لأن التغير حصل على الترتيب الموافق للمصلحة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما قال (من علق) على الجمع لأن الإنسان فى معنى الجمع ، كقوله (إن الإنسان لفى خسر) .

قوله تعالى : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم اقرأ أولا لنفسك ، والثانى للتبليغ أو الأول للتعلم من جبريل والثانى للتعليم . أو اقرأ فى صلاتك ، والثانى خارج صلاتك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الكرم إفادة ما ينبغى لا لعوض ، فمن يهب السكين ممن يقتل به نفسه فهو ليس بكريم ، ومن أعطى ثم طلب عوضاً فهو ليس بكريم ، وليس يجب أن يكون العوض عيناً بل المدح والثواب والتخلص عن المذمة كله عوض ، ولهذا قال أصحابنا إنه تعالى يستحيل أن يفعل فعلا لغرض لأنه لو فعل فعلا لغرض لكان حصول ذلك الغرض أولى له من لا حصوله ، فحينئذ يستفيد بفعل ذلك الشيء حصول تلك الأولوية ، ولو لم يفعل ذلك الفعل لما كان يحصل له تلك الأولوية ، فيكون ناقصا بذاته مستكملا بغيره وذلك محال ، ثم ذكروا فى بيان أكرميته تعالى وجوهاً (أحدها) أنه كم من كريم يحلم وقت الجناية ، لكن لا يبقى إحسانه على الوجه الذى كان قبل الجناية ، وهو تعالى أكرم لأنه يزيد بإحسانه بعد الجناية ، ومنه قول القائل :

متى زدت تقصيراً تزد لى تفضلا كأنى بالتقصير استوجب الفضلا

(وثانيها) إنك كريم لكن ربك أكرم وكيف لا وكل كريم ينال بكرمه نفعاً إما مدحاً أو ثواباً أو يدفع ضرراً . أما أنا فالأكرم إذلا أفعله إلا لمحض الكرم (وثالثها) أنه الأكرم لأن له الابتداء فى كل كرم وإحسان وكرمه غير مشوب بالتقصير (ورابعها) يحتمل أن يكون هذا حثاً على القراءة أى هذا الأكرم لأنه يجازيك بكل حرف عشراً أو حثاً على الإخلاص ، أى لا تقرأ لطمع ولكن لأجلى ودع على أمرك فأنا أكرم من أن لا أعطيك مالا يخطر ببالك ، ويحتمل أن المعنى تجرد لدعوة الخلق ولا تخف أحداً فأنا أكرم من أن آمرك بهذا التكليف الشاق ثم لا أنصرك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه سبحانه وصف نفسه بأنه (خلق الإنسان من علق) وثانياً بأنه علقة وهى بالقلم) ولا مناسبة فى الظاهر بين الأمرين ، لكن التحقيق أن أول أحوال الإنسان كونه علقة وهى أخس الأشياء وآخر أمره هو صيرورته عالماً بحقائق الأشياء ، وهو أشرف مراتب المخلوقات فكأنه تعالى يقول انتقلت من أخس المراتب إلى أعلى المراتب فلا بد لك من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة ، ثم فيه تنبيه على أن العلم أشرف الصفات

عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾

الإنسانية ، كأنه تعالى يقول الإيجاد والإحياء والإقدار و الرزق كرم وربوبية ، أما الأكرم هو الذى أعطاك العلم لأن العلم هو النهاية فى الشرف .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق) إشارة إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة ، وقوله (الذى علم بالقلم) إشارة إلى الأحكام المكتوبة التى لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع ، فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية والثانى إلى النبوة ، وقدم الأول على الثانى تنبيهاً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ فى قوله (علم بالقلم) وجهان (أحدهما) أن المراد من القلم الكتابة التى تعرف بها الأمور الغائبة ، وجعل القلم كناية عنها (والثانى) أن المراد علم الإنسان الكتابة بالقلم وكلا القولين متقارب ، إذ المراد التنبيه على فضيلة الكتابة ، يروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام ، فقال ريح لا يبقى ، قال فما قيده . قال الكتابة ، فالقلم صياد يصيد العلوم يبكى ويضحك ، بركوعه تسجد الأنام ، وبحركته تبقى العلوم على مر الليالى والأيام ، نظيره قول زكريا (إذ نادى ربه نداء خفياً) أخفى وأسمع فكذا القلم لا ينطق ثم يسمع الشرق والغرب ، فسبحانه من قادر بسوادها جعل الدين منوراً ، كما أنه جعلك بالسواد مبصراً ، فالقلم قوام الإنسان والإنسان قوام العين ، ولا تقل القلم نائب اللسان ، فإن القلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم ، التراب طهور ، ولو إلى عشر حجج ، والقلم بدل عن اللسان ولو بعث إلى المشرق والمغرب .

أما قوله تعالى ﴿ علم الإنسان مالم يعلم ﴾ فيحتمل أن يكون المراد علمه بالقلم وعلمه أيضاً غير ذلك ولم يذكر واو النسق ، وقد يجرى مثل هذا فى الكلام تقول أكرمتك أحسنت إليك ملكتك الأموال وليتك الولايات ، ويحتمل أن يكون المراد من اللفظين واحداً ويكون المعنى : علم الإنسان بالقلم مالم يعلمه ، فيكون قوله (علم الإنسان مالم يعلم) بياناً لقوله (علم بالقلم) .

قوله تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد من الإنسان ههنا إنسان واحد وهو أبو جهل ، ثم منهم من قال نزلت السورة من ههنا إلى آخرها فى أبى جهل . وقيل نزلت من قوله (أرأيت الذى ينهى عبداً) إلى آخر السورة فى أبى جهل : قال ابن عباس : كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى فجاء أبو جهل ، فقال ألم أنهك عن هذا ؟ فزجره النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال

أبو جهل : والله إنك لتعلم أنى أكثر أهل الوادى نادياً ، فأنزل الله تعالى (فليدع ناديه ، سندع الزبانية) قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله ، فكأنه تعالى لما عرفه أنه مخلوق من علق فلا يليق به التكبر ، فهو عند ذلك ازداد طغياناً وتعززاً بماله ورياسته فى مكة . ويروى أنه قال ليس بمكة أكرم منى . ولعله لعنه الله قال ذلك رداً لقوله (وربك الكرم) ثم القائلون بهذا القول منهم من زعم أنه ليست هذه السورة من أوائل مانزل . ومنهم من قال : يحتمل أن يكون خمس آيات من أول السورة نزلت أولا ، ثم نزلت البقية بعد ذلك فى شأن أبى جهل ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم بضم ذلك إلى أول السورة ، لأن تأليف الآيات إنما كان بأمر الله تعالى ، ألا ترى أن قوله تعالى (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله) آخر ما نزل عند المفسرين ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل (القول الثانى) أن المراد من الإنسان المذكور فى هذه الآية جملة الإنسان ، والقول الأول وإن كان أظهر بحسب الروايات ، إلا أن هذا القول أقرب بحسب الظاهر ، لأنه تعالى بين أن الله سبحانه مع أنه خلقه من علقة ، وأنعم عليه بالنعم التى قدمنا ذكرها ، إذ أغناه ، وزاد فى النعمة عليه فإنه يطغى ويتجاوز الحد فى المعاصى واتباع هوى النفس ، وذلك وعيد وزجر عن هذه طريقة ، ثم إنه تعالى أكد هذا الزجر بقوله (إن إلى ربك الرجعى) أى إلى حيث لا مالك سواه ، فتقع المحاسبة على ماكان منه من العمل والمؤاخذة بحسب ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (كلا) فيه وجوه (أحدها أنه ردع وزجر لمن كفر بنعمة الله بطغيانه ، وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه (وثانيها) قال مقاتل : كلا لا يعلم الإنسان أن الله هو الذى خلقه من العلقة وعلمه بعد الجهل ، وذلك لأنه عند صيرورته غنياً يطغى ويتكبر ، ويصير مستغرق القلب فى حب الدنيا فلا يتفكر فى هذه الأحوال ولا يتأمل فيها (وثالثها) ذكر الجرجانى صاحب النظم أن (كلا) ههنا بمعنى حقاً لأنه ليس قبله ولا بعده شىء تكون (كلا) رداً له ، وهذا كما قالوه فى (كلا والقمر) فإنهم زعموا أنه بمعنى : إى والقمر :

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الطغيان هو التكبر والتمرد ، وتحقيق الكلام فى هذه الآية أن الله تعالى لما ذكر فى مقدمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيد والقدرة والحكمة بحيث يبعد من العاقل أن لايطلع عليها ولا يقف على حقائقها . أتبعها بما هو السبب الأصلى فى الغفلة عنها وهو حب الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة والقدرة ، فإنه لا سبب لعمى القلب فى الحقيقة إلا ذلك . فإن قيل إن فرعون ادعى الربوبية ، فقال الله تعالى فى حقه (اذهب إلى فرعون إنه طغى) وههنا ذكر فى أبى جهل (ليطغى) فأكده بهذه اللام ، فما السبب فى هذه الزيادة ؟ قلنا فيه وجوه (أحدها) أنه قال لموسى (اذهب إلى فرعون إنه طغى) وذلك قبل أن يلقاه موسى ، وقبل أن يعرض عليه الأدلة ، وقبل أن يدعى الربوبية . وأما ههنا فإنه تعالى ذكر هذه الآية تسلية لرسوله حين رد عليه أقبح الرد (وثانيها) أن فرعون مع كمال سلطنته ماكان يزيد كفره على القول ، وماكان ليتعرض لقتل موسى عليه السلام ولا لإيذائه . وأما أبو جهل فهو مع قلة جاهه كان

أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾

يقصد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وإيذاءه (وثالثها) أن فرعون أحسن إلى موسى أولا ، وقال آخراً (آمنت) . وأما أبو جهل فكان يحسد النبي في صباه ، وقال في آخر رمقه : بلغوا عني محمداً أني أموت ولا أحد أبغض إلى منه (ورابعها) أنهما وإن كانا رسولين لكن الحبيب في مقابلة الكليم كاليد في مقابلة العين ، والعاقل يصون عينه فوق ما يصون يده ، بل يصون عينه باليد ، فلهذا السبب كانت المبالغة ههنا أكثر .

قوله تعالى : ﴿ أن رآه استغنى ﴾ ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الأخفش : لأن رآه فحذف اللام ، كما يقال أنكم لتطغون أن رأيتم غناكم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الفراء إنما قال (أن رآه) ولم يقل رأى نفسه كما يقال قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي تستدعي اسما وخبراً نحو الظن والحسبان ، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس فتقول رأيتني وظننتني وحسبتني فقوله (أن رآه استغنى) من هذا الباب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في قوله (استغنى) وجهان : (أحدهما) استغنى بماله عن ربه ، والمراد من الآية ليس هو الأول ، لأن الإنسان قد ينال الثروة فلا يزيد إلا تواضعاً كسليمان عليه السلام ، فإنه كان يجالس المساكين ويقول « مسكين جالس مسكيناً » وعبد الرحمن بن عوف ماطغى مع كثرة أمواله ، بل العاقل يعلم أنه عند الغنى يكون أكثر حاجة إلى الله تعالى منه حال فقره ، لأنه في حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه ، وأما حال الغنى فانه يتمنى سلامة نفسه وماله ومماليكه ، وفي الآية (وجه ثاني) : وهو أن سين (استغنى) سين الطالب والمعنى أن الانسان رأى أن نفسه إنما نالت الغنى لأنها طلبته وبذلت الجهد في الطلب فنالت الثروة والغنى بسبب ذلك الجهد ، لا أنه نالها بإعطاء الله وتوفيقه ، وهذا جهل وحمق فكم من باذل وسعه في الحرص والطلب وهو يموت جوعاً ، ثم ترى أكثر الأغنياء في الآخرة يصيرون مدبرين خائفين ، يريهم الله أن ذلك الغنى ما كان بفعالهم وقوتهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أول السورة يدل على مدح العلم وآخرها على مذمة المال ، وكفى بذلك مرغباً في الدين والعلم ومنفراً عن الدنيا والمال .

قوله تعالى : ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (الرجعى) المرجع والرجوع وهي بأجمعها مصادر ، يقال رجع إليه رجوعاً

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾

ومرجعاً ورجعى على وزن فعلى ، وفى معنى الآية وجهان : (أحدهما) أنه يرى ثواب طاعته وعقاب تمرده وتكبره وطغيانه ، ونظيره قوله (ولا تحسبن الله غافلا) إلى قوله (إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) وهذه الموعظة لا تؤثر إلا فى قلب من له قدم صدق ، أما الجاهل فيغضب ولا يعتقد إلا الفرح العاجل (والقول الثانى) أنه تعالى يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت ، كما رده من النقصان إلى الكمال ، حيث نقله من الجمادية إلى الحياة ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الذل إلى العز ، فما هذا التعزز والقوة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى أن أبا جهل قال للرسول عليه الصلاة والسلام : أتزعم أن من استغنى طغى ، فاجعل لنا جبال مكة ذهباً وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى ، فندع ديننا ونتبع دينك ، فنزل جبريل وقال : إن شئت فعلنا ذلك ، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم مثل ما فعلنا بأصحاب المائدة ، فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ روى عن أبى جهل لعنه الله أنه قال : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا نعم ، قال فوالذى يحلف به لئن رأيته لأطأن عنقه ، ثم إنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة فنكص على عقبيه ، فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟ فقال إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولا شديداً . وعن الحسن أن أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة .

واعلم أن ظاهر الآية أن المراد فى هذه الآية هو الإنسان المتقدم ذكره ، فلذلك قالوا إنه ورد فى أبى جهل ، وذكروا ما كان منه من التوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام حين رآه يصلى ، ولا يمتنع أن يكون نزولها فى أبى جهل ، ثم يعم فى الكل ، لكن ما بعده يقتضى أنه فى رجل بعينه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (أرأيت) خطاب مع الرسول على سبيل التعجب ، ووجه التعجب فيه أمور (أحدها) أنه عليه السلام قال : اللهم أعز الإسلام إما بأبى جهل بن هشام أو بعمر ، فكأنه تعالى قال له : كنت تظن أنه يعز به الإسلام ، أمثله يعز به الإسلام ، وهو (ينهى عبداً إذا صلى) (وثانيها) أنه كان يلقب بأبى الحكم ، فكأنه تعالى يقول : كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه ، أيوصف بالحكمة من يمنع عن طاعة الرحمن ويسجد للأوثان ! (وثالثها) أن ذلك الأحمق يأمر وينهى ، ويعتقد أنه يجب على الغير طاعته ، مع أنه ليس بخالق ولا رب ، ثم إنه ينهى عن طاعة الرب والخالق ، ألا يكون هذا غاية الحماقة

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال (ينهى عبداً) ولم يقل ينهاك ، وفيه فوائد (أحدها) أن التنكير فى عبداً يدل على كونه كاملا فى العبودية ، كأنه يقول : إنه عبد لا يفى العالم بشرح بيانه وصفة إخلاصه فى

أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾

عبوديته (يروى) فى هذا المعنى أن يهودياً من فصحاء اليهود جاء إلى عمر فى أيام خلافته فقال أخبرنى عن أخلاق رسولكم ، فقال عمر : اطلبه من بلال فهو أعلم به منى . ثم إن بلالا دله على فاطمة ثم فاطمة دلته على على عليه السلام ، فلما سأل علياً عنه قال : صف لى متاع الدنيا حتى أصف لك أخلاقه ، فقال الرجل هذا لا يتيسر لى ، فقال على : عجزت عن وصف متاع الدنيا وقد شهد الله على قلته حيث قال (قل متاع الدنيا قليل) فكيف أصف أخلاق النبى وقد شهد الله تعالى بأنه عظيم حيث قال (وإنك لعلى خلق عظيم) فكأنه تعالى قال ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية وذلك عين الجهل والحمق (وثانيها) أن هذا أبلغ فى الذم لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته فينهى كل من يرى (وثالثها) أن هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة ، روى عن على عليه السلام أنه رأى فى المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد ، فقال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ، فقيل له ألا تنهاهم ؟ فقال أخشى أن أدخل تحت قوله (أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى) فلم يصرح بالنهى عن الصلاة ، وأخذ أبو حنيفة منه هذا الأدب الجميل حين قال له أبو يوسف أيقول المصلى حين يرفع رأسه من الركوع : اللهم اغفرلى ؟ قال يقول ربنا لك الحمد ويسجد ولم يصرح بالنهى (ورابعها) أيظن أبو جهل أنه لو لم يسجد محمد لى لا أجد ساجداً غيره ، إن محمداً عبد واحد ، ولى من الملائكة المقربين مالا يحصيهم إلا أنا وهم دائما فى الصلاة والتسبيح (وخامسها) أنه تفخيم لشأن النبى عليه السلام يقول إنه مع التنكير معرف ، نظيره الكناية فى سورة القدر حملت على القرآن ولم يسبق له ذكر (أسرى بعبده) (أنزل على عبده) (وأنه لما قام عبد الله) .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (أرأيت) خطاب لمن ؟ فيه وجهان (الأول) أنه خطاب للنبى عليه السلام ، والدليل عليه أن الأول وهو قوله (أرأيت الذى ينهى عبداً) للنبى صلى الله عليه وسلم والثالث وهو قوله (أرأيت إن كذب وتولى) للنبى عليه الصلاة والسلام فلو جعلنا الوسط لغير النبى لخرج الكلام عن النظم الحسن ، يقول الله تعالى يا محمد : أرأيت إن كان هذا الكافر ، ولم يقل لو كان إشارة إلى المستقبل كأنه يقول أرأيت إن صار على الهدى ، واشتغل بأمر نفسه ، أما كان يليق به ذلك إذ هو رجل عاقل ذو ثروة ، فلو اختار الدين والهدى والأمر بالتقوى ، أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله والنهى عن خدمته وطاعته ، كأنه تعالى يقول : تلهف عليه كيف فوت على نفسه المراتب العالية وقنع بالمراتب الدنيئة .

﴿ القول الثانى ﴾ أنه خطاب للكافر ، لأن الله تعالى كالمشاهد للظالم والمظلوم ، وكالمولى الذى قام بين يديه عبدان ، وكالحاكم الذى حضر عنده المدعى ، والمدعى عليه فخاطب هذا مرة ، وهذا

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾

مرة . فلما قال للنبي (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) التفت بعد ذلك إلى الكافر ، فقال : أرأيت يا كافر إن كانت صلاته هدى ودعاؤه إلى الله أمراً بالتقوى أتنهاه مع ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ههنا سؤال وهو أن المذكور فى أول الآية . هو الصلاة وهو قوله (أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى) والمذكور ههنا أمران ،وهو قوله (أرأيت إن كان على الهدى) فى فعل الصلاة ، فلم ضم إليه شيئاً ثانياً ، وهو قوله (أو أمر بالتقوى) ؟ (جوابه) من وجوه (أحدها) أن الذي شق على أبي جهل من أفعال الرسول عليه الصلاة والسلام هو هذان الأمران الصلاة والدعاء إلى الله ، فلا جرم ذكرهما ههنا (وثانيها) أن النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يوجد إلا فى أحد أمرين ، إما فى إصلاح نفسه ، وذلك بفعل الصلاة أو فى إصلاح غيره ، وذلك بالأمر بالتقوى (وثالثها) أنه عليه السلام كان فى صلاته على الهدى وآمراً بالتقوى ، لأن كل من رآه وهو فى الصلاة كان يرق قلبه . فيميل إلى الايمان ، فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل ، وهو أقوى من الدعوة بلسان القول .

ثم قال تعالى ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ وفيه قولان :

﴿ القول الأول ﴾ أنه خطاب مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأن الدلائل التى ذكرها فى أول هذه السورة جلية ظاهرة ، وكل أحد يعلم ببديهة عقله ، أن منع العبد من خدمة مولاه فعل باطل وسفه ظاهر ، فإذن كل من كذب بتلك الدلائل وتولى عن خدمة مولاه بل منع غيره عن خدمة مولاه يعلم بعقله السليم أنه على الباطل ، وأنه لا يفعل ذلك إلا عناداً . فلهذا قال تعالى لرسوله أرأيت يا محمد إن كذب هذا الكافر بتلك الدلائل الواضحة ، وتولى عن خدمة خالقه ، ألم يعلم بعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القبيحة ويعلمها ، أفلا يزجره ذلك عن هذه الأعمال القبيحة (والثاني) أنه خطاب للكافر ، والمعنى إن كان يا كافر محمد كاذباً أو متولياً ، ألا يعلم بأن الله يرى حتى ينتهى بل احتاج إلى نهيك .

أما قوله ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المقصود من الآية التهديد بالحشر والنشر ، والمعنى أنه تعالى عالم بجميع المعلومات حكيم لا يهمل ، عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، فلا بد وأن يوصل جزاء كل أحد إليه بتمامه فيكون هذا تخويفاً شديداً للعصاة ، وترغيباً عظيما لأهل الطاعة

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية وإن نزلت فى حق أبي جهل فكل من نهى عن طاعة الله فهو شريك أبي جهل فى هذا الوعيد ، ولا يرد عليه المنع من الصلاة فى الدار المغصوبة والأوقات المكروهة ، لأن المنهى عنه غير الصلاة وهو المعصية ، ولا يرد المولى بمنع عبده عن قيام الليل

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾

وصوم التطوع وزوجته عن الاعتكاف ، لأن ذلك لاستيفاء مصلحته بإذن ربه لا بغضاً للعبادة وبه .

ثم قال تعالى ﴿ كلا ﴾ وفيه وجوه (أحدها) أنه ردع لأبي جهل ومنع له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات (وثانيها) كلا لن يصل أبو جهل إلى ما يقول إنه يقتل محمداً أو يطأ عنقه ، بل تلميذ محمد هو الذي يقتله ويطأ صدره (وثالثها) قال مقاتل : كلا لا يعلم أن الله يرى وإن كان يعلم لكن إذا كان لا ينتفع بما يعلم فكأنه لا يعلم .

ثم قال تعالى ﴿ لئن لم ينته ﴾ أي عما هو فيه ﴿ لنسفعاً بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله (لنسفعاً) وجوه (أحدها) لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار ، والسفع القبض على الشيء ، وجذبه بشدة ، وهو كقوله (فيؤخذ بالنواصي والأقدام) (وثانيها) السفع الضرب ، أي لنلطمن وجهه (وثالثها) لنسودن وجهه ، قال الخليل تقول للشيء إذا لفحته النار لفحاً يسيراً يغير لون البشرة قد سفعته النار ، قال والسفع ثلاثة أحجار يوضع عليها القدر سميت بذلك لسوادها ، قال والسفعة سواد في الخدين . وبالجملة فتسويد الوجه علامة الإذلال والاهانة (ورابعها) لنسمنه قال ابن عباس في قوله (سنسمه على الخرطوم) إنه أبو جهل (وخامسها) لنذلنه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرىء لنسفعن بالنون المشددة ، أي الفاعل لهذا الفعل هو الله والملائكة ، كما قال (فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) وقرأ ابن مسعود لأسفعن ، أي يقول الله تعالى يا محمد . أنا الذي أتولى إهانته ، نظيره (هو الذي أيدك) ، (هو الذي أنزل السكينة) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ هذا السفع يحتمل أن يكون المراد منه إلى النار في الآخرة وأن يكون المراد منه في الدنيا ، وهذا أيضاً على وجوه (أحدها) ما روى أن أبا جهل لما قال : إن رأيته يصلي لأطأن عنقه ، فأنزل الله هذه السورة ، وأمره جبريل عليه السلام بأن يقرأ على أبي جهل ويخر لله ساجداً في آخرها ففعل ، فعدا إليه أبو جهل ليطأ عنقه ، فلما دنا منه نكص على عقبيه راجعاً ، فقيل له مالك ؟ قال إن بيني وبينه فحلا فاغراً فاه لو مشيت إليه لالتقمني ، وقيل كان جبريل وميكائيل عليهما السلام على كتفيه في صورة الأسد (والثاني) أن يكون المراد يوم بدر فيكون ذلك بشارة بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجرونه إلى القتل إذا عاد إلى النهي ، فلما عاد لا جرم مكنهم الله تعالى من ناصيته يوم بدر ، روى أنه لما نزلت سورة الرحمن (علم القرآن) قال عليه السلام لأصحابه من يقرؤها منكم على رؤساء قريش ، فتثاقلوا مخافة أذيتهم ، فقام ابن مسعود وقال : أنا يا رسول الله ، فأجلسه عليه السلام ، ثم قال من يقرؤها عليهم فلم يقم إلا ابن مسعود ، ثم ثالثاً كذلك إلى أن أذن له ، وكان عليه السلام يبقى عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر

جثته . ثم إنه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة ، فافتتح قراءة السورة ، فقام أبو جهل فلطمه فشق أذنه وأدماه ، فانصرف وعيناه تدمع ، فلما رآه النبي عليه السلام رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً ، فإذا جبريل عليه السلام يجيء ضاحكاً مستبشراً ، فقال ياجبريل تضحك وابن مسعود يبكي ! فقال ستعلم ، فلما ظهر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ فى المجاهدين ، فأخذ يطالع القتلى . فإذا أبو جهل مصروع يخور ، فخاف أن تكون به قوة فيؤذيه فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه ، ولعل هذا معنى قوله (سنسمه على الخرطوم) ثم لما عرف عجزه ولم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه فارتقى إليه بحيلة ، فلما رآه أبو جهل قال يارويعي الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً ، فقال ابن مسعود : الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ، فقال أبو جهل : بلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إلى منه فى حياتى ولا أحد أبغض إلى منه فى حال مماتى ، فروى أنه عليه السلام لما سمع ذلك قال « فرعونى أشد من فرعون موسى فإنه قال (آمنت) وهو قد زاد عتواً » ثم قال لابن مسعود اقطع رأسى بسيفى هذا لأنه أحد وأقطع ، فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله ، ولعل الحكيم سبحانه إنما خلقه ضعيفاً لأجل أن لا يقوى على الحمل لوجوه : (أحدها) أنه كلب والكلب يجر (والثانى) لشق الأذن فيقتص الأذن بالأذن (والثالث) لتحقيق الوعيد المذكور بقوله (لنسفعاً بالناصية) فتجر تلك الرأس على مقدمها ، ثم إن ابن مسعود لما لم يطقه شق أذنه وجعل الخيط فيه وجعل يجره إلى رسول الله ﷺ وجبريل بين يديه يضحك ، ويقول يا محمد أذن بأذن لكن الرأس ههنا مع الأذن ، فهذا ماروى فى مقتل أبى جهل نقلته معنى لالفظاً ، الخاطىء معنى قوله (لنسفعاً بالناصية) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الناصية شعر الجبهة وقد يسمى مكان الشعر الناصية ، ثم إنه تعالى كنى ههنا عن الوجه والرأس بالناصية ، ولعل السبب فيه أن أباجهل كان شديد الاهتمام بترجيل تلك الناصية وتطييبها ، وربما كان يهتم أيضاً بتسويدها فأخبره الله تعالى أنه يسودها مع الوجه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ أنه تعالى عرف الناصية بحرف التعريف كأنه تعالى يقول الناصية المعروفة عندكم ذاتها لكنها مجهولة عندكم صفاتها ناصية وأى ناصية كاذبة قولا خاطئة فعلا ، وإنما وصف بالكذب لأنه كان كاذباً على الله تعالى فى أنه لم يرسل محمداً وكاذباً على رسوله فى أنه ساحر أو كذاب أو ليس بنبى ، وقيل كذبه أنه قال . أنا أكثر أهل هذا الوادى نادياً ، ووصف الناصية بأنها خاطئة لأن صاحبها متمرد على الله تعالى قال الله تعالى (لا يأكله إلا الخاطئون) والفرق بين الخاطىء والمخطىء أن الخاطىء معاقب مؤاخذ والمخطىء غير مؤاخذ ، ووصف الناصية بالخاطئة الكاذبة كما وصف الوجوه بأنها ناظرة فى قوله تعالى (إلى ربها ناظرة) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ (ناصية) بدل من الناصية ، وجاز إبدالها من المعرفة وهى نكرة ، لأنها وصفت فاستقلت بفائدة .

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾

﴿ المسألة السابعة ﴾ قرىء ناصية بالرفع والتقدير هي ناصية ، وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم ، واعلم أن الرسول عليه السلام لما أغلظ في القول لأبي جهل وتلا عليه هذه الآيات ، قال : يامحمد بمن تهددني وإني لأكثر هذا الوادي نادياً ، فافتخر بجماعته الذين كانوا يأكلون حطامه ، فنزل قوله تعالى ﴿ فليدع ناديه ، سندع الزبانية ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد مر تفسير النادي عند قوله (وتأتون في ناديكم المنكر) قال أبو عبيدة ناديه أي أهل مجلسه ، وبالجملة فالمراد من النادي أهل النادي ، ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله ، وسمي نادياً لأن القوم يندون إليه ندواً وندوة ، ومنه دار الندوة بمكة ، وكانوا يجتمعون فيها للتشاور ، وقيل سمي نادياً لأنه مجلس الندى والجود ، ذكر ذلك على سبيل التهكم أي : اجمع أهل الكرم والدفاع في زعمك لينصروك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أبو عبيدة والمبرد واحد الزبانية زبنية وأصله من زبنية إذا دفعته وهو متمرد من إنس أو جن ، ومثله في المعنى والتقدير عفرية يقال فلان زبنية عفرية ، وقال الأخفش قال بعضهم واحده الزباني ، وقال آخرون الزابن ، وقال آخرون هذا من الجمع الذي لا واحد له من لفظه في لغة العرب مثل أبابيل وعباديد وبالجملة فالمراد ملائكة العذاب ، ولا شك أنهم مخصوصون بقوة شديدة . وقال مقاتل هم خزنة جهنم أرجلهم في الأرض ورؤسهم في السماء ، وقال قتادة الزبانية هم الشرط في كلام العرب وهم الملائكة الغلاظ الشداد ، وملائكة النار سموا الزبانية لأنهم يزبنون الكفار أي يدفعونهم في جهنم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ في الآية قولان (الأول) أي فليفعل ما ذكره من أنه يدعو أنصاره ويستعين بهم في مباطلة محمد ، فإنه لو فعل ذلك فنحن ندعو الزبانية الذين لا طاقة لناديه وقومه بهم ، قال ابن عباس : لودعا ناديه لأخذته الزبانية من ساعته معاينة ، وقيل هذا إخبار من الله تعالى بأنه يجر في الدنيا كالكلب وقد فعل به ذلك يوم بدر ، وقيل بل هذا إخبار بأن الزبانية يجرونه في الآخرة إلى النار (القول الثاني) أن في الآية تقديما وتأخيراً أي لنسفعاً بالناصية وسندع الزبانية في الآخرة ، فليدع هو ناديه حينئذ فليمنعوه .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ الفاء في قوله (فليدع ناديه) تدل على المعجز ، لأن هذا يكون تحريضاً للكافر على دعوة ناديه وقومه ، ومتى فعل الكافر ذلك ترتب عليه دعوة الزبانية ، فلما لم يجترىء الكافر على ذلك دل على ظهور معجزة الرسول ﷺ .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قرىء (ستدعى) على المجهول . وهذه السين ليست للشك وإن عسى

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾

من الله واجب الوقوع ، وخصوصاً عند بشارة الرسول ﷺ بأن ينتقم له من عدوه ، ولعل فائدة السين هو المراد من قوله عليه السلام « لأنصرنك ولو بعد حين » .

ثم قال ﴿ كلا ﴾ وهو ردع لأبى جهل ، وقيل معناه لن يصل إلى ما يتصلف به من أنه يدعو ناديه ولئن دعاهم لن ينفعوه ولن ينصروه ، وهو أذل وأحقر من أن يقاومك ، ويحتمل : لن ينال ما يتمنى من طاعتك له حين نهاك عن الصلاة ، وقيل معناه : ألا لا تطعه .

ثم قال ﴿ لا تطعه ﴾ وهو كقوله (فلا تطع المكذبين) ، ﴿ واسجد ﴾ وعند أكثر أهل التأويل أراد به صل وتوفر على عبادة الله تعالى فعلا وإبلاغاً ، وليقل فكرك فى هذا العدو فإن الله مقويك وناصرك ، وقال بعضهم بل المراد الخضوع ، وقال آخرون : بل المراد نفس السجود فى الصلاة .

ثم قال ﴿ واقترب ﴾ والمراد وابتغ بسجودك قرب المنزلة من ربك ، وفى الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد » وقال بعضهم المراد : اسجد يا محمد ، واقترب يا أبا جهل منه حتى تبصر ما ينالك من أخذ الزبانية إياك ، فكأنه تعالى أمره بالسجود ليزداد غيظ الكافر ، كقوله (ليغيظ بهم الكفار) والسبب الموجب لازدياد الغيظ هو أن الكفار كان يمنعه من القيام ، فيكون غيظه وغضبه عند مشاهدة السجود أتم ، ثم قال عند ذلك (واقترب) منه يا أبا جهل وضع قدمك عليه ، فإن الرجل ساجد مشغول بنفسه ، وهذا تهكم به واستحقار لشأنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

❁

٩٦ ــ سورة العلق
(مكية وهى تسعة عشر آية)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ٩٦ العلق

خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٩٦ العلق

﴿ سورة العلق مكية وآيها تسع عشرة ﴾

١ (بسم الله الرحمن الرحيم) (اقرأ) أى مايوحى إليك فإن الأمر بالقراءة يقتضى المقروء قطعاً
وحيث لم يعين وجب أن يكون ذلك مايتصل بالأمر حتماسواء كانت السورة أول مانزل أولا والأقرب
أن هذا إلى قوله تعالى مالم يعلم أول مانزل عليه عليه الصلاة والسلام كما ينطق به حديث الزهرى
* المشهور وقوله تعالى (باسم ربك) متعلق بمضمر هو حال من ضمير الفاعل أى اقرأ ملتبساً باسمه تعالى
أى مبتدئاً به لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ
إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية
* القاصية من الكمالات البشرية بإنزال الوحى المتواتر ووصف الرب بقوله تعالى (الذى خلق) لتذكير
أول النعماء الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام منه تعالى والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على
ماهو عليه من الحياة وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلا عن
سائر الكمالات قادر على تعليم القراءة للحى العالم المتكلم أى الذى أنشأ الخلق واستأثر به أو خلق كل
٢ شىء وقوله تعالى (خلق الإنسان) على الأول تخصيص لخلق الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات
لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير وعلى الثانى إفراد للإنسان من بين سائر المخلوقات بالبيان وتفخيم
لشأنه إذ هو أشرفهم وإليه التنزيل وهو المأمور بالقراءة ويجوز أن يراد بالفعل الأول أيضاً خلق
* الإنسان ويقصد بتجريده عن المفعول الإبهام ثم التفسير روما لتفخيم فطرته وقوله تعالى (من علق)
أى دم جامد لبيان كمال قدرته تعالى بإظهار مابين حالته الأولى والآخرة من التباين البين وإيراده بلفظ
الجمع بناء على أن الإنسان فى معنى الجمع لمراعاة الفواصل ولعله هو السر فى تخصيصه بالذكر من بين
سائر أطوار الفطرة الإنسانية مع كون النطفة والتراب أدل منه على كمال القدرة لكونهما أبعد منه
بالنسبة إلى الإنسانية ولما كان خلق الإنسان أول النعم الفائضة عليه عليه الصلاة والسلام منه تعالى

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٩٦ العلق

الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ ٩٦ العلق

عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ٩٦ العلق

كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ ٩٦ العلق

أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ٩٦ العلق

وأقدم الدلائل الدالة على وجوده عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته وصف ذاته تعالى بذلك أولا
٣ ليستشهد عليه السلام به على تمكينه تعالى له من القراءة ثم كرر الأمر بقوله تعالى (اقرأ) أى افعل
* ما أمرت به تأكيداً للإيجاب وتمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى (وربك الأكرم) الخ فإنه كلام مستأنف
وارد لإزاحة ما بينه عليه السلام من العذر بقوله عليه السلام ما أنا بقارىء يريد أن القراءة شأن من
٤ يكتب ويقرأ وأنا أمى فقيل له وربك الذى أمرك بالقراءة مبتدئاً باسمه هو الأكرم (الذى علم
بالقلم) أى علم ما علم بواسطة القلم لاغيره فكما علم القارىء بواسطة الكتابة والقلم يعلمك بدونهما وقوله
٥ تعالى (علم الإنسان مالم يعلم) بدل اشتمال من علم بالقلم أى علمه به وبدونه من الأمور الكلية والجزئية
والجلية والخفية مالم يخطر بباله وفى حذف المفعول أولا وإيراده بعنوان عدم المعلومية ثانياً من
الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمال كرمه والإشعار بأنه تعالى يعلمه من العلوم مالاتحيط به العقول مالا
٦ يخفى (كلا) ردع لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه وإن لم يسبق ذكره للمبالغة فى الزجر وقوله تعالى
* (إن الإنسان ليطغى) أى ليجاوز الحد ويستكبر على ربه بيان للمردوع والمردوع عنه قيل هذا
٧ إلى آخر السورة نزل فى أبى جهل بعد الزمان وهو الظاهر وقوله تعالى (أن رآه استغنى) مفعول له
أى يطغى لأن رأى نفسه مستغنياً على أن استغنى مفعول ثان لرأى لأنه بمعنى علم ولذلك ساغ كون
فاعله ومفعوله ضميرى واحد كما فى علمتنى وإن جوزه بعضهم فى الرؤية البصرية أيضاً وجعل من ذلك
قول عائشة رضى الله عنها لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام إلا الأسودان
وتعليل طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء كما ينبىء عنه قوله تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى
الأرض للإيذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد . روى أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم
أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع
دينك فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال إن شئت فعلنا ذلك ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم مافعلنا بأصحاب
المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم وقوله تعالى :

إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ ٩٦ العلق

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ ٩٦ العلق

عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ ٩٦ العلق

أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ ٩٦ العلق

أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ ٩٦ العلق

أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ ٩٦ العلق

أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ ٩٦ العلق

---

٨ (إن إلى ربك الرجعى) تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطغيان والالتفات للتشديد فى التهديد والرجعى مصدر بمعنى الرجوع كالبشرى وتقديم الجار والمجرور عليه لقصره عليه أى إن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث لا إلى غيره استقلالا ولا اشتراكا فسترى حينئذ عاقبة طغيانك وقوله تعالى
٩،١٠ (أرأيت الذى ينهى) (عبداً إذا صلى) تقبيح وتشنيع لحاله وتعجيب منها وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤية ويقضى منها العجب . روى أن أبا جهل قال فى ملأ من طغاة قريش لئن رأيت محمداً يصلى لأطأن عنقه فرآه عليه السلام فى الصلاة فجاءه ثم نكص على عقبيه فقالوا مالك قال إن بينى وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة فنزلت ولفظ العبد وتنكيره لتفخيمه عليه السلام واستعظام النهى وتأكيد التعجب منه والرؤية ههنا بصرية وأما ما فى قوله تعالى
١١،١٢،١٣ (أرأيت إن كان على الهدى) (أو أمر بالتقوى) وما فى قوله تعالى (أرأيت إن كذب وتولى) فقلبية معناه أخبرنى فإن الرؤية لما كانت سبباً للإخبار عن المرئى أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها والخطاب لكل من صلح للخطاب ونظم الأمر والتكذيب والتولى فى سلك الشرط المتردد بين الوقوع وعدمه ليس باعتبار نفس الأفعال المذكورة من حيث صدورها عن الفاعل فإن ذلك ليس فى حيز التردد أصلا بل باعتبار أوصافها التى هى كونها أمراً بالتقوى وتكذيباً وتولياً كما فى قوله تعالى قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به كما مر والمفعول الأول لأرأيت محذوف وهو ضمير يعود إلى الموصول أو اسم إشارة يشار به إليه ومفعوله الثانى سد مسده الجملة الشرطية بجوابها المحذوف فإن المفعول الثانى لأرأيت لا يكون إلا جملة استفهامية أو قسمية والمعنى أخبرنى ذلك الناهى إن كان على الهدى فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى أو آمراً بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقده
١٤ أو مكذباً للحق معرضاً عن الصوب كما نقول نحن (ألم يعلم بأن الله يرى) أى يطلع على أحواله فيجازيه

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ ٩٦ العلق

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ ٩٦ العلق

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ ٩٦ العلق

سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ٩٦ العلق

بها حتى أجترأ على مافعل وإنما أفرد التكذيب والتولى بشرطية مستقلة مقرونة بالجواب مصدرة باستخبار مستأنف ولم ينظما فى سلك الشرط الأول بعطفهما على كان للإيذان باستقلالهما بالوقوع فى نفس الأمر واستتباع الوعيد الذى ينطق به الجواب وأما القسم الأول فأمر مستحيل قد ذكر فى حيز الشرط لتوسيع الدائرة وهو السر فى تجريد الشرطية الأولى عن الجواب والإحالة به على جواب الثانية هـذا وقد قيل أرأيت الأول بمعنى أخبرنى مفعوله الأول الموصول ومفعوله الثانى الشرطية الأولى بجوابها المحذوف لدلالة جواب الشرطية الثانية عليه وأرأيت فى الموضعين تكرير للتأكيد ومعناه أخبرنى عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهى على طريقة سديدة فيما ينهى عن عبادة الله تعالى أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقده وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولى عن الدين الصحيح كما نقول نحن ألم يعلم بأن الله يرى ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك فتأمل وقيل المعنى أرأيت الذى ينهى عبداً يصلى والمنهى عن الهدى آمر بالتقوى والناهى مكذب متول فما أعجب من ذا وقيل الخطاب الثانى للكافر فإنه تعالى كالحاكم الذى حضره الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر أخرى وكأنه قال يا كافر أخبرنى إن كان صلاته هدى ودعاؤه إلى الله تعالى أمراً بالتقوى أتنهاه وقيل هو أمية بن خلف

١٥ كان ينهى سلمان عن الصلاة (كلا) ردع للناهى اللعين وخسوء له واللام فى قوله تعالى (لئن لم ينته) موطئة للقسم أى والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر (لنسفعا بالناصية) لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار والسفع القبض على الشيء وجذبه بعنف وشدة وقرىء لنسفعن بالنون المشددة وقرىء لأسفعن وكتبته فى المصحف بالألف على حكم الوقف والاكتفاء بلام العهد عن الإضافة لظهور أن

١٦ المراد ناصية المذكور (ناصية كاذبة خاطئة) بدل من الناصية وإنما جاز إبدالها من المعرفة وهى نكرة لوصفها وقرئت بالرفع على هى ناصية وبالنصب وكلاهما على الذم والشتم ووصفها بالكذب والخطأ

١٧ على الإسناد المجازى وهما لصاحبها وفيه من الجزالة ماليس فى قولك ناصية كاذب المخطىء (فليدع ناديه) أى أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذى ينتدى فيه القوم أى يجتمعون . روى أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى فقال ألم أنهك فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم

١٨ فقال أتهددنى وأنا أكثر أهل الوادى نادياً فنزلت (سندع الزبانية) ليجروه إلى النار والزبانية

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾ ٩٦ العلق

الشرط الواحد زبنية كعفرية من الزبن وهو الدفع وقيل زبنى وكأنه نسب إلى الزبن ثم غير كأمسى
وأصلها زبانى فقيل زبانيـة بتعويض التاء عن الياء والمراد ملائكة العذاب وعن النبى صلى الله عليه
١٩ وسلم لودعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً (كلا) ردع بعد ردع وزجر إثر زجر (لا تطعه) أى دم
على ما أنت عليه من معاصاته (واسجد) وواظب على سجودك وصلاتك غير مكترث به (واقترب) *
وتقرب بذلك إلى ربك وفى الحديث أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد. عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم من قرأ سورة العلق أعطى من الأجر كأنما قرأ المفصل كله .

سورة العلق

وتسمى سورة اقرأ لاخلاف في مكيتها وانما الخلاف في عدد آيها ففي الحجازي عشرون آية وفي العراقي تسع عشرة وفي الشامي ثماني عشرة وفي أنها أول نازل أولا فذهب كثير الى أنها أول نازل فقد أخرج الطبراني في الكبير بسنده على شرط الصحيح عن أبي رجاء العطاردي قال كان أبو موسى الاشعري يقرئنا فيجلسنا حلقا عليه ثوبان أبيضان فاذا تلا هذه السورة اقرأ باسم

ربك قال هذه أول سورة أنزلت على محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد اخرج الحاكم في المستدرك والبيهقى في الدلائل وصححاه عن عائشة نحوه وأخرج غير واحد عن مجاهد قال أول مانزل من القرآن اقرأ باسم ربك ثم ن والقلم وروى الشيخان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال سألت جابر بن عبدالله أى القرآن أنزل أولا قال ياأيها المدثر قلت يقولون اقرأ باسم ربك قال أحدثكم بما حدثنا به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فساق الحديث مستدلا به على ماادعاه وأجاب عنه الاولون بعدة أجوبة مر ذكرها وقيل الفاتحة واحتج له بحديث مرسل رجاله ثقات أخرجه البيهقى في الدلائل والواحدى من طريق يونس بن بكير عن يونس بن عمرعن أبيه عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل وأجيب عنه بان مافيه يحتمل أن يكون خبرا عما نزل بعد اقرأ وياأيها المدثر مع ان غيره أقوى منه رواية وجزم جابر بن زيد بان أول مانزل اقرأ ثم ن ثم ياأيها المزمل ثم ياأيها المدثر ثم الفاتحة وقيل أول مانزل صدرها الى مالم يعلم في غار حراء ثم نزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله تعالى وهو ظاهر ما أخرجه الامام أحمد والشيخان وعبد بن حميد وعبدالرزاق وغيرهم من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة في حديث بدء الوحى وفيه فاخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم فرجع بها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ترجف بوادره الى ان قالت ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحى وفي آخر ماروا قال ابن شهاب وأخبرنى أبو سلمة عن جابر ابن عبد الله الانصارى قال وهو يحدث عن فترة الوحى فقال في حديثه بينا أنا أمشى اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والارض فرعبت منه فرجعت فقلت زملونى زملونى فانزل الله تعالى ياأيها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر فحمى الوحى وتتابع ويعلم منه ضعف الاستدلال على كون سورة المدثر أول نازل من القرآن على الاطلاق بما روى أولا عن جابر المذكور كما لايخفى على الواقف عليه وقد ذكرناه صدر الكلام في سورة المدثر لقوله فيه وهو يحدث عن فترة الوحى وقوله فاذا الملك الذى جاءنى بحراء وقوله فحمى الوحى وتتابع أى بعد فترته وبالجملة الصحيح كما قال البعض وهو الذى أختاره ان صدر هذه السورة الكريمة هو أول مانزل من القرآن على الاطلاق كيف وقد ورد حديث بدء الوحى المروى عن عائشة من أصح الاحاديث وفيه فجاءه الملك فقال اقرأ فقال قلت ما أنا بقارىء فاخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد الخ والظاهر ان ما فيه نافية بل قال النووى هو الصواب وذلك انما يتصور أولا والا لكان الامتناع من أشد المعاصى ويطابقه ماذكره الائمة في باب تأخير البيان وسنشير اليه ان شاء الله تعالى وفي الكشف الوجه حمل قول جابر على السورة الكاملة وفي شرح صحيح مسلم الصواب أن أول ما نزل اقرأ أى مطلقا وأول مانزل بعد فترة الوحى ياأيها المدثر واما قول من قال من المفسرين أول ما نزل الفاتحة فبطلانه أظهر من أن يذكر انتهى وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله والله تعالى أعلم ولما ذكر سبحانه في سورة التين خلق الانسان في أحسن تقويم بين عز وجل هنا أنه تعالى خلق الانسان من علق فكان ماتقدم كالبيان للعلة الصورية وهذا كالبيان للعلة المادية وذكر سبحانه هنا أيضا من أحواله في الآخرة ماهو أبسط مما ذكره عز وجل هناك فقال سبحانه وتعالى

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * اقْرَأْ ﴾ أى مايوحى اليك من القرآن فالمفعول مقدر بقرينة المقام كما قيل وليس الفعل منزلا منزلة اللازم ولا أن مفعوله قوله تعالى ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ على أن الباء زائدة كما قال

أبو عبيدة وزعم أن المعنى اذكر ربك بل هي أصلية ومعناها الملابسة وهي متعلقة بما عندها أو بمحذوف وقع حالا كما روى عن قتادة والمعنى اقرأ مبتدئا أو مفتتحا باسم ربك أى قل بسم الله ثم اقرأ وهو ظاهر في أنه لو افتتح بغير اسمه عز وجل لم يكن ممتثلا واستدل بذلك على أن البسملة جزء من كل سورة وفيه بحث وكذا الاستدلال به على أنها ليست من القرآن للمقابلة اذ لقائل أن يقول انها تخصص القرآن المقدر مفعولا بغيرها وبعضهم استدل على انها ليست بقرآن فى أوائل السور بانها لم تذكر فيما صح من أخبار بدء الوحى الحاكية لكيفية نزول هذه الآيات كذا أفاده النووى عليه الرحمة ثم قال وجواب المثبتين انها لم تنزل أولا بل نزلت فى وقت آخر كما نزل باقى السورة كذلك وهذا خلاف ماأخرج الواحدى عن عكرمة والحسن انهما قالا أول ما نزل من القرآن بسم الله الرحمن الرحيم وأول سورة اقرأ وكذا خلاف ماأخرجه ابن جرير وغيره من طريق الضحاك عن ابن عباس انه قال اول ما نزل جبريل عليه السلام على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال يا محمد استعذ ثم قل بسم الله الرحمن الرحيم وقد عد القول بانها أول ما نزل أحد الاقوال في تعيين أول منزل من القرآن وقال الجلال السيوطى أن هذا القول لايعد عندى قولا برأسه فانه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها فهى أول آية نزلت على الاطلاق وفيه منع ظاهر كما لايخفى وجوز كون الباء للاستعانة متعلقة بما عندها أو بمحذوف وقع حالا ورجحت الملابسة بسلامتها عن ايهام كون اسمه تعالى آلة لغيره وقد تقدم مايتعلق بذلك أول الكتاب ثم انه ليس في الامر المذكور تكليف بما لايطاق سواء دل الامر على الفور أم لا لانه صلى الله تعالى عليه وسلم علم ان ما أوحى قرآن فهو المكلف بقراءته عليه الصلاة والسلام ولا محذور في كون اقرأ الخ مأمورا بقراءته لصدق المأمور بقراءته عليه وهذا كما تقول لشخص اسمع ماأقول لك فانه مأمور بسماع هذا اللفظ أيضا وقد ذكر جمع من الاصوليين ان هذا بيان للمأمور به في قول جبريل عليه السلام اقرأ المذكور في حديث بدء الوحى المتفق عليه قال الآمدى عند ذكر أدلة جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب الذى ذهب اليه جماعة من الحنفية وغيرهم ومن الادلة ما روى أن جبريل عليه السلام قال للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم اقرأ قال وما اقرأ كرر عليه ثلاث مرات ثم قال له اقرأ باسم ربك الذى خلق فاخر بيان ما أمره به أولا مع اجماله الى ما بعد ثلاث مرات من أمر جبريل عليه السلام وسؤال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع امكان بيانه أولا وذلك دليل جواز التأخير الى آخر ما قال سؤالا وجوابا لا يتعلق بهما غرضنا ولا يخفى أن كون هذا بيانا للمراد على الوجه الذى ذكرناه ظاهر وكونه كذلك بجعل اقرأ باسم ربك الى آخر ما نزل أو بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ الخ على ما ادعاه الجلال معمولا لاقرأ المكرر في كلام جبريل عليه السلام مما لا أظن ان أصوليا يقول به ومثله كونه كذلك بحمل الآية على ما سمعت عن أبى عبيدة وأما بناء الاستدلال على مافي بعض الآثار من أن جبريل عليه السلام جاء الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو بحراء بنمط من ديباج مكتوب فيه اقرأ باسم ربك الى مالم يعلم فقال له اقرأ فقال عليه الصلاة والسلام ما أنا بقارىء قال اقرأ باسم ربك بان يكون اقرأ الخ بيانا وتلاوة من جبريل عليه السلام لما في النمط المنزل لعدم العلم بما فيه وان كان مشاهدا منزلة المجمل الغير المعلوم فلا يخفى حاله فتأمل ثم ان في كلام الآمدى من حيث رواية الخبر مافيه فلا تغفل والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ الى الكمال اللائق شيئا فشيئا مع الاضافة الى ضميره صلى الله تعالى عليه وسلم للاشعار بتبليغه عليه الصلاة والسلام الى الغاية القاصية من الكمالات البشرية بانزال الوحى المتواتر ووصف الرب بقوله تعالى ﴿ الَّذِى خَلَقَ ﴾ لتذكيره عليه الصلاة والسلام أول النعماء الفائضة عليه صلى الله تعالى

عليه وسلم منه سبحانه مع ما في ذلك من التنبيه على قدرته تعالى على تعليم القراءة بالطف وجه وقيل لتأكيد عدم ارادة غيره تعالى من الرب فان العرب كانت تسمى الاصنام أربابا لكنهم لاينسبون الخلق اليها والفعل اما منزل منزلة اللازم أى الذى له الخلق أو مقدر مفعوله عاما اى الذى خلق كل شيء والاول يفيد العموم ايضا فعلى الوجهين يكون وجه تخصيص الانسان بالذكر في قوله تعالى ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ انه اشرف المخلوقات وفيه من بدائع الصنع والتدبير ما فيه فهو ادل على وجوب العبادة المقصودة من القراءة مع ان التنزيل اليه ويجوز أن يراد خلق الانسان الا أنه لم يذكر أولا وذكر ثانيا قصداً لتفخيمه بالابهام ثم التفسير وعن الزمخشرى أن المناسب ان يراد خلق الانسان بعد الامر بقراءة القرآن تنبيها على انه تعالى خلقه للقراءة والدراية كما أن ذكر خلق الانسان عقيب تعليم القرآن أول سورة الرحمن لنحو ذلك وقوله تعالى ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أى دم جامد لبيان كمال قدرته تعالى باظهار مابين حالتيه الاولى والآخرة من التباين البين وأتى به دالا على الجمع لان الانسان مراد به الجنس فهو فى معنى الجمع فأتى بما خلق منه كذلك ليطابقه مع مافى ذلك من رعاية الفواصل ولعله على ماقيل السر في تخصيص هذا الطور من بين سائر أطوار الفطرة الانسانية مع كون النطفة والتراب أدل على كمال القدرة لكونهما أبعد منه بالنسبة الى الانسانية وفي البحر لم يذكر سبحانه مادة الاصل يعنى آدم عليه السلام وهو التراب لان خلقه من ذلك لم يكن متقررا عند الكفار فذكر مادة الفرع وخلقه منها وترك مادة أصل الخلقة تقريبا لافهامهم وهو على مافيه لايحسم مادة السؤال وقيل خص هذا الطور تذكيرا له عليه الصلاة والسلام لما وقع من شرح الصدر قبل النبوة واخراج العلق منه ليتهيأ تهيئا تاما لما يكون له بعد فكأنه قيل الذى خلق الانسان من جنس ماأخرجه من صدرك الشريف ليهيئك بذلك لمثل مايلقى اليك الآن وبهذا تقوى مناسبة هذه السورة لسورة الشرح قبلها أتم مناسبة لاسيما على تفسير الشرح بالشق فتدبره ومن الناس من زعم ان المراد بالانسان آدم عليه السلام وان المعنى خلق آدم من طين يعلق باليد وهو مما لاتعلق به يد القبول ولما كان خلق الانسان أول النعم الفائضة عليه منه تعالى واقدم الدلائل الدالة على وجوده عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته سبحانه وصف ذاته تعالى بذلك أولا ليستشهد عليه الصلاة والسلام به على تمكينه تعالى له من القراءة ثم كرر جل وعلا الامر بقوله تعالى ﴿اقْرَأْ﴾ أى افعل ماأمرت به تأكيداً للايجاب وتمهيدا لما يعقبه من قوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ الخ فانه كلام مستأنف وارد لازاحة مابينه صلى الله تعالى عليه وسلم من العذر بقوله عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام حين قال له اقرأ ماأنا بقارىء يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وأنا أمى فقيل وربك الذى أمرك بالقراءة مفتتحا ومبتدأ باسمه الاكرم ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ أى علم ماعلم بواسطة القلم لاغيره تعالى فكما علم سبحانه القارىء بواسطة الكتابة بالقلم يعلمك بدونها وحقيقة الكرم اعطاء ما ينبغى لا لغرض فهو صفة لا يشاركه تعالى في اطلاقها أحد فافعل للمبالغة وجوزان لا يكون اقرأ هذا تأكيدا للاول وانما ذكر ليوصل به ما يزيح العذر فجملة وربك الخ في موضع الحال من الضمير المستتر فيه وقوله تعالى ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ بدل اشتمال من علم بالقلم أى علمه به وبدونه من الامور الكلية والجزئية والجلية والخفية مالم يخطر بباله وفي حذف المفعول أولا وايراده بعنوان عدم المعلومية ثانيا من الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمال كرمه عز وجل والاشعار بأنه تعالى يعلمه عليه الصلاة والسلام من العلوم مالايحيط به العقول مالا يخفى قاله في الارشاد وقدر بعضهم مفعول علم الخط وجعل بالقلم متعلقا به وأيد بقراءة

ابن الزبير الذى علم الخط بالقلم حيث صرح فيها بذلك وقال الجبائى ان اقرأ الاول أمر بالقراءة لنفسه وقيل مطلقا والثانى أمر بالقراءة للتبليغ وقيل في الصلاة المشار اليها فيما بعد وجملة وربك الخ تحتمل الحالية والاستئنافية وحاصل المعنى على ارادة القراءة للتبليغ في قول بلغ قومك وربك الاكرم الذى يثيبك على عملك بما يقتضيه كرمه ويقويك على حفظ القرآن لتبلغه وأولى الاوجه وأظهرها التأكيد وأبعد بعضهم جدا فزعم ان بسم في البسملة متعلق باقرأ الاول وباسم ربك متعلق باقرأ الثانى ليفيد التقديم اختصاص اسم الله تعالى بالابتداء وجوز أيضا ان يبقى باسم الله على ما هو المشهور فيه واقرأ أمر بأحداث القراءة وباسم ربك متعلق باقرأ الثانى لذلك ولا يخفى أن الظاهر تعلق باسم ربك بما عنده وتقديم الفعل ههنا أوقع لان السورة المذكورة على ما سبق من التصحيح أول سورة نزلت فالقراءة فيها أهم نظرا للمقام وقيل انه لو سلم كون غيرها نازلا قبلها لا يضر في حسن تقديم الفعل لان المعنى كما سمعت عن قتادة اقرأ مفتتحا باسم ربك أى قل باسم الله ثم اقرأ فلو افتتح بغير البسملة لم يكن ممتثلا فضلا عن أن يفتتح بما يضادها من أسماء الاصنام ولو قدم الجار أفاد معنى آخر وهو أن المطلوب عند القراءة أن يكون الافتتاح باسم الله تعالى لا باسم الاصنام ولا تكون القراءة في نفسها مطلوبة لما علم أن مقتضى التقديم أن يكون أصل الفعل مسلما على ما هو عليه من زمان طلبا كان أو خبرا وأجاب من علق الجار بالثانى بان مطلوبية القراءة في نفسها استفيدت من اقرأ الاول فلا تغفل والظاهر أن المعلم بالقلم غير معين وقيل هو كل نبى كتب وقال الضحاك هو ادريس عليه السلام وهو أول من خط وقال كعب هو آدم عليه السلام وهو أول من كتب وقد نسبوا لآدم وادريس عليهما السلام نقوشا مخصوصة في كتابة حروف الهجاء والذى يغلب على الظن عدم صحة ذلك وقد أدمج سبحانه وتعالى التنبيه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة ونيل الرتب الفخيمة ولولاه لم يقم دين ولم يصلح عيش ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره سبحانه دليل الا أمر القلم والخط لكفى به وقد قيل فيه

لعاب الافاعى القاتلات لعابه ✲ وأرى الجنى اشتارته أيد عواسل

ومما نسبه الزمخشرى فى ذلك لبعضهم وعنى على ما قيل نفسه

ورواقم رقش كمثل أراقم ✲ قطف الخطى نيالة أقصى المدى

سود القوائم ما يجد مسيرها ✲ الا اذا لعبت بها بيض المدى

ولهم في هذا الباب كلام فصل يضيق عنه الكتاب وظاهر الآثار ان الكتابة في الامم غير العرب قديمة وفيهم حادثة لاسيما في أهل الحجاز وذكر غير واحد ان الكتابة نقلت اليهم من أهل الحيرة وانهم أخذوها من أهل الانبار وذكر الكلبى والهيثم بن عدى ان الناقل للخط العربى من العراق الى الحجاز حرب ابن امية وكان قد قدم الحيرة فعاد الى مكة به وأنه قيل لابنه أبى سفيان ممن أخذ أبوك هذا الخط فقال من أسلم بن أسدرة وقال سألت أسلم ممن أخذت هذا الخط فقال من واضعه مرامر بن مرة وقيل كان لحمير كتابة يسمونها المسند منفصلة غير متصلة وكان لها شان عندهم فلا يتعاطاها الا من اذن له فى تعلمها واصناف الكتابة كثيرة وزعم بعضهم ان جل كتابات الامم اثنا عشر صنفا العربية والحميرية والفارسية والعبرانية واليونانية والرومية والقبطية والبربرية والاندلسية والهندية والصينية والسريانية ولعل هذا ان صح باعتبار الاصول والا فالفروع توشك ان لايحصيها قلم كما لايخفى والله تعالى أعلم ولم ير بعض العلماء من الادب وصف غيره تعالى بالاكرم كما يفعله كثير من الناس في رسائلهم فيكتبون الى فلان الاكرم ومع هذا يعدونه وصفا نازلا ويستهجنونه بالنسبة للملوك ونحوهم من الاكابر وقد يصفون

به اليهودي والنصراني ونحوهما مع انه تعالى يقول وربك الاكرم فعلى العبد ان يراعي الادب مع مولاه شاكرا كرمه الذي أولاه ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لمن كفر من جنس الانسان بنعمة الله تعالى عليه بطغيانه وان لم يذكر لدلالة الكلام عليه وذلك لان مفتتح السورة الى هذا المقطع يدل على عظيم منته تعالى على الانسان فاذا قيل كلا كان ردعا للانسان الذي قابل تلك النعم الجلائل بالكفران والطغيان وكذلك التعليل بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴾ أي ليتجاوز الحد في المعصية واتباع هوى النفس ويستكبر على ربه عز وجل وقال الكلبي أي ليرتفع عن منزلة الى منزلة في اللباس والطعام وغيرهما وليس بذاك وقدر بعضهم بعد قوله تعالى مالم يعلم ليشكر تلك النعم الجليلة فطغى وكفر كلا وقيل كلا بمعنى حقا لعدم مايتوجه اليه الردع والزجر ظاهرا فقوله سبحانه ان الانسان الخ بيان لما أريد احقاقه وهذا الى آخر السورة قيل نزل في أبي جهل بعد زمان من نزول الآيات السابقة وهو الظاهر ومع نزوله في ذلك اللعين المراد بالانسان الجنس وقوله سبحانه ﴿ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ مفعول من أجله أي يطغى لان رأى نفسه مستغنيا على ان جملة استغنى مفعول ثان لرأى لانه بمعنى علم ولذلك ساغ كون فاعله ومفعوله ضميري واحد نحو علمتني فقد قالوا ان ذلك لايكون في غير أفعال القلوب وفقد وعدم وذهب جماعة الى أن رأى البصرية قد تعطى حكم القلبية في ذلك وجعلوا منه قول عائشة لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وما لنا طعام الا الاسودان وأنشدوا

ولقد أراني للرماح دريئة ✡ من عن يميني تارة وأمامي

فاذا جعلت رأى هنا بصرية فالجملة في موضع الحال وتعليل طغيانه برؤيته لابنفس الاستغناء كما ينبيء عنه قوله تعالى ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض للايذان بان مدار طغيانه زعمه الفاسد على الأول ومجرد رؤيته ظاهر الحال من غير روية وتأمل في حقيقته على الثاني وعلى الوجهين المراد بالاستغناء الغنى بالمال أعني مقابل الفقر المعروف وقيل المراد أن رأى نفسه مستغنيا عن ربه سبحانه بعشيرته وأمواله وقوته وهو خلاف الظاهر ويبعده ظاهر ماروى أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أتزعم ان من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة ذهبا وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك فنزل جبريل عليه السلام فقال ان شئت فعلنا ذلك ثم ان لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا باصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الدعاء ابقاء عليهم وقرأ قنبل بخلاف عنه أن رأه بحذف الالف التي بعد الهمزة وهي لام الفعل وروى ذلك عنه ابن مجاهد وغلطه فيه وقال ان ذلك حذف لا يجوز وفي البحر ينبغي ان لا يغلطه بل يتطلب له وجها وقد حذفت الالف في نحو من هذا قال ✡ وصاني العجاج فيمن وصنى ✡ يريد وصاني فحذف الالف وهي لام الفعل وقد حذفت في مضارع رأى في قولهم أصاب الناس جهد لوتر أهل مكة وهو حذف لا ينقاس لكن اذا صحت الرواية وجب القبول فالقراآت جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها وقوله تعالى ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطغيان والخطاب قيل للانسان والالتفات للتشديد في التهديد وجوز أن يكون الخطاب لسيد المخاطبين صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد أيضا تهديد الطاغي وتحذيره ولعله الاظهر نظرا الى الخطابات قبله والرجعى مصدر بمعنى الرجوع كالبشرى والالف فيها للتانيث وتقديم الجار والمجرور عليه للقصر أي ان الى ربك رجوع الكل بالموت والبعث لا الى غيره سبحانه استقلالا أو اشترا كا فترى حينئذ عاقبة الطغيان وفي هذه الآيات على ما قيل ادماج التنبيه على مذمة المال كما ان في الآيات الاول ادماج التنبيه على مدح العلم وكفى ذلك مرغبا في الدين والعلم ومنفرا عن الدنيا والمال وقوله تعالى

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴾ ذكر لبعض آثار الطغيان ووعيد عليها ولم يختلف المفسرون كما قال ابن عطية في ان العبد المصلى هو رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والناهي هو اللعين أبو جهل فقد أخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة أن أبا جهل حلف باللات والعزى لئن رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى ليطأن على رقبته وليعفرن وجهه فاتى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يصلى ليفعل فما فجأهم منه الا وهو ينكص على عقبيه ويتقى بيديه فقيل له مالك فقال ان بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لودنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا وأنزل الله تعالى كلا ان الانسان الى آخر السورة وقول الحسن هو أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة لايكاد يصح لانه لاخلاف في ان اسلام سلمان رضى الله تعالى عنه كان بالمدينة بعد الهجرة كما انه لاخلاف في ان السورة مكية نعم حكم الآية عام فان كان ماحكى عن أمية واقعا فحكمها شامل له والصلاة التى أشارت اليها الآية كانت على ماحكى أبو حيان صلاة الظهر وحكى أيضا أنها كانت تصلى جماعة وهي أول جماعة أقيمت في الاسلام وانه كان معه عليه الصلاة والسلام أبو بكر وعلى رضى الله تعالى عنهما فمر أبو طالب ومعه ابنه جعفر فقال له يابنى صل جناح ابن عمك وانصرف مسرورا وأنشأ يقول

ان عليا وجعفرا ثقتى ✡ عند ملم الزمان والكرب

والله لا أخذل النبي ولا ✡ يخذله من يكون من حسبي

لاتخذلا وانصرا ابن عمكما ✡ أخي لامى من بينهم وأبى

وفي هذا نظر لان الصلاة فرضت ليلة الاسراء بلا خلاف وادعى ابن حزم الاجماع على انه كان قبل الهجرة بسنة وجزم ابن فارس بانه كان قبلها بسنة وثلاثة أشهر وقال السدى بسنة وخمسة أشهر وموت أبي طالب كان قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين لانه كان قبل وفاة خديجة بثلاثة وقيل بخمسة أيام وكانت وفاتها بعد البعثة بعشر سنين على الصحيح فابو طالب على هذا لم يدرك فرضية الصلاة نعم حكى القاضي عياض عن الزهرى ورجحه النووى والقرطبي أن الاسراء كان بعد البعث بخمس سنين لكن قيل عليه ما قيل فليراجع والنهى قيل بمعنى المنع وعبر به اشارة الى عدم اقتدار اللعين على غير ذلك وفي بعض الاخبار ماظاهره انه حصل منه نهى لفظى فقد أخرج أحمد والترمذى وصححه وغيرهما عن ابن عباس قال كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يصلى فجاء أبوجهل فقال ألم أنهك عن هذا ألم أنهك عن هذا الحديث والتعبير بما يفيد الاستقبال لاستحضار الصورة الماضية لنوع غرابة والرؤية قيل قلبية وكذا في قوله تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴾ وقوله عزوجل ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ والمفعول الاول للاول الموصول وللثانى والثالث محذوف وهو ضمير يعود عليه أو اسم اشارة يشار به اليه والمفعول الثانى للثالث قوله سبحانه ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ والاولان متوجهان اليه أيضا وهومقدر عندهما وترك اظهاره اختصارا ونظار ذلك أخبرنى عن زيدان وفدت عليه أخبرنى عنه ان استخبرته أخبرنى عنه ان توسلت اليه اما يوجب حقى وليس ذلك من التنازع لان الجمل لايصح اضمارها وانما هو من الطلب المعنوى والحذف في غير التنازع وجواب الشرط في الجملتين محذوف لدلالة ألم يعلم عليه ويقدر حسبما تقتضيه الصناعة وقيل يدل عليه أرأيت مرادا به ما سيذكر قريبا ان شاء الله تعالى ويقدر كذلك والكلام عليه أيضا نظير ما مر آنفا والضمائر المستترة في كان وما بعد من الافعال للناهي والمراد من أرأيت أخبرنى

فان الرؤية لما كانت سببا للعلم اجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها والاستفهام الواقع موقع المفعول الثاني هو متعلق الاستخبار هنا وهذا الاجراء على ما يفهم من كلام بعض الأئمة يكون مع الرؤية البصرية والرؤية القلبية وللنحاة فيه قولان والخطاب في الكل على ما اختاره جمع لكل من يصلح أن يكون مخاطبا ممن له مسكة وقيل للانسان كالخطاب في الى ربك وتنوين عبدا على ما هو ظاهر كلام البعض للتنكير وتقييد النهي بالظرف يشعر بان النهي عن الصلاة حال التلبس بها وفصل بين الجمل للاعتناء بامر التشنيع والوعيد حيث أشعر ان كل جملة مقصودة على حيالها فشنع سبحانه على الناهي أولا بنهيه عن الصلاة وأوعد عليه مطلقا بقوله تعالى أرأيت الذى الخ أى أخبرنى يامن له أدنى تمييز أو أيها الانسان عمن ينهى عن الصلاة بعض عباد الله تعالى ألم يعلم بان الله تعالى يرى ويطلع فيجازيه على ذلك النهي وشنع سبحانه عليه ثانيا بنهيه عن ذلك وأوعده عليه أيضا على تقدير أنه على زعمه على هدى ورشد في نفس النهي أو أنه أمر بواسطته بالتقوى لان النهي عن الشيء أمر بضده أو مستلزم له فقال تعالى شانه أرأيت ان كان الخ أى أخبرنى عن ذلك الناهي ألم يعلم ان الله يطلع فيجازيه ان كان على هدى ورشد في نفس النهي او كان أمرا بواسطته بالتقوى كما يزعم وشنع جل شانه عليه ثالثا بذلك وأوعده عليه أيضا على تقدير انه في نفس الامر وفيما يقوله تعالى مكذبا بحقية الصلاة متوليا عنها معرضا عن فعلها بقوله تعالى أرأيت ان كذب الخ أى أخبرنى عن ذلك الناهي ألم يعلم بأن الله تعالى يطلع على أحواله ان كذب بحقية مانهى عنه وأعرض عن فعله على مانقول نحن والحاصل انه تعالى شنع وأوعد على النهي عن الصلاة بدون تعرض لحال الناهي الزعمي أو الحقيقي ثم شنع وأوعد جل وعلا عليه مع التعرض لحاله الزعمي ثم شنع عز وجل وأوعد عليه مع التعرض لحاله الحقيقي وهذ كالترقي في التشنيع والجمهور على عدم تقييد مافي حيز الشرطيتين بما ذكرنا حيث قالوا ان كان على طريقة سديدة فيماينهى عنه من عبادة الله تعالى أو كان أمرا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الاوثان كما يزعم وا كان مكذبا للحق ومتوليا عن الصواب كما نقول وذكر ان الشرط الثاني تكرار للاول لان معنى الاول انه ليس على الهدى وأوضح بان ادخال حرف الشرط في الاول لارخاء العنان صورة والتهكم حقيقة اذ لايكون في النهي عن عبادته تعالى والامر بعبادة الاصنام هدى البتة وفي الثاني لذلك والتهكم على عكس الاول اذ لاشك أنه مكذب متول فمآلهما الى واحد وقيل ان الرؤية في الجملة الاولى بصرية فلاتحتاج الى مفعول ثان وفي الثانية والثالثة قلبية والمفعول الاول على ماتقدم والمفعول الثاني سد مسده الجملة الشرطية بجوابها وهو في الاخيرة الم يعلم الخ المذكور وفيما قبلها محذوف دل هو عليه ولم تعطف الاخيرة على ماقبلها للايذان باستقلالها بالوقوع في نفس الامر وباستتباع الوعيد الذى ينطق به الجواب واما ماقبلها فامر الشرط فيه ليس الا لتوسيع الدائرة وهو السر في تجريده عن الجواب والاحالة به على جواب الشرطية بعده والخطاب في الكل لمن يصلح له والتنوين في عبدا لتفخيمه عليه الصلاة والسلام واستعظام النهي وتأكيد التعجيب منه والمعنى أخبرنى عن ذلك الناهي ان كان على الهدى فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى الخ ماذكر آنفا ألم يعلم ان الله يرى ويطلع على أحواله فيجازيه بها حتى اجترأ على مافعل وقيل ان أرأيت في الجمل الثلاث من الرؤية القلبية والمفعول الاول للاولى الموصول ومفعولها الثاني الجملة الشرطية الاولى بجوابها المحذوف اكتفاء عنه بجواب الشرطية الثانية اذ علم من ضرورة التقابل وأرأيت الثانية تكرارا للاولى وأرأيت الثالثة ومفعولها الاول محذوف للقرينة مستقلة لأنها تقابل الاولى للتقابل بين الشرطين يعنى قوله تعالى أن كان الخ وقوله سبحانه

ان كذب الخ وفي الاتيان بالجملة الاخيرة من دون العطف ترشيح للكلام المبكت وتنبيه على حقية الشرط ولهذا صرح بجوابه ليتمحض وعيدا والخطاب على ما تقدم أولا والكلام من قبيل الكلام المنصف وارخاء العنان ولذا قيل عبدا ولم يقل نبيا مجتبى فكأنه قيل أخبرني يا من له أدنى تمييز عن حال هذا الذي ينهى بعض عباد الله تعالى فضلا عن النبي المجتبى عن صلاته ان كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى أو كان آمرا بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الاصنام كما يزعم وكذلك ان كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما تقول ألم يعلم الخ وقيل أرأيت في الجملتين الثانية والثالثة تكرار للاولى والشرطيتان بجوابهما سادتان مسد المفعول الثاني للاولى وألم يعلم الخ جواب الشرط الثاني وجواب الاول محذوف لدلالته عليه ولم يقل او ان كذب الخ لانه ليس بقسيم لما قبله على ما قيل والمعنى على نحو ما سمعت وأورد على جميع هذه الاقوال ان في تجويز الاتيان بالاستفهام في جزاء الشرط من غير الفاء وان صرح به الزمخشري في كشافه وارتضاه الرضي واستشهد له بقوله تعالى قل أرأيتم ان أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك الا القوم الظالمون بحثا لان ظاهر نقل الزمخشري نفسه في المفصل ونقل غيره وجوب الفاء اذا كان الجزاء جملة انشائية والاستفهام وان لم يبق على الحقيقة لم يخرج على ما في الكشف من الانشاء وقال أبو حيان ان وقوع جملة الاستفهام جوابا للشرط بغير فاء لا أعلم أحدا أجازه بل نصوا على وجوب الفاء في كل ما اقتضى طلبا بوجه ما ولا يجوز حذفها الا في ضرورة أو شعر وقال الدماميني في شرح التسهيل ان جعل هل يهلك جزاء مشكل لعدم اقترانه بالفاء والاقتران بها في مثل ذلك واجب واعترض أيضا جعل الجملة الشرطية في موضع المفعول الثاني لا رأيت بان مفعولها الثاني لا يكون الا جملة استفهامية كما نص عليه أبو حيان وجماعة أو قسمية كما في الارشاد وقال الخفاجي ان جعل الشرطية في موقع المفعول والجملة الاستفهامية في موقع جواب الشرط اما على ظاهره أو على أنهما لدلالتهما على ذلك جعلا كأنهما كذلك لسدهما مسد المفعول والجواب وبما ذكر صرح الرضي والدماميني في شرح التسهيل في باب اسم الاشارة فما قيل من ان المفعول الثاني لا رأيت لا يكون الا جملة استفهامية مخالف لما صرحوا بانه مختار سيبويه فلا يلتفت اليه ولم يجعلوا فيما ذكر الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولا للكافر الناهي لان السياق مقتض لخروج الناهي والمنهي عن مورد الخطاب واستظهر في البحر جعله للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم و جوز غيره جعله للكافر والمراد تصوير الحال بعنوان كلي وهو كما ترى وقيل الضميران في ان كان وأمر للعبد المصلي والضمائر في كذب وتولى ويعلم للذي ينهى وحاصل المعنى على ما قال الفراء ارأيت الذي ينهى عبدا يصلي والمنهي على الهدى وآمر بالتقوى والناهي مكذب متول فما أعجب من ذا والظاهر ان جواب الشرط عليه محذوف وهو فما أعجب من ذا بقرينة أرأيت فانه يفيد التعجب والرؤية فيه قيل علمية والمفعول الثاني محذوف نحو هذا الجواب وقيل بصرية وألم يعلم الخ جملة مستأنفة لتقرير ماقبلها وتأكيده وأو تقسيمية بمعنى الواو وقيل الخطاب في أرأيت الثانية للكافر وفي الثالثة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهو عز وجل كالحاكم الذي حضر الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر اخرى وكأنه سبحانه قال يا كافر اخبرني ان كانت صلاته هدى ودعاؤه الى الله تعالى أمر بالتقوى أتنهاه وأخبرني أيها الرسول ان كان الناهي مكذبا بالحق متوليا عن الدين الصحيح ألم يعلم بان الله تعالى يجازيه وسكت هذا القائل عن الخطاب في أرأيت الاول فقيل لكل من يصلح له وقيل للانسان وقيل للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم كالخطاب في الثالث وقوله اتنهاه يحتمل انه جعله مفعولا لرأيت ويحتمل انه جواب الشرط وأو كما في سابقه ولعل ذكر الامر بالتقوى في الجملة الثانية لان

النهى على ما قيل كان عن الصلاة والامر بها وكان الظاهر عليه ان يذكر في الجملة الاولى أيضاً بان يقال أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى او أمر بالتقوى لكنه حذف اكتفاء بذكره في الثانية واقتصر على ذكر الصلاة ولم يعكس لان الامر بالتقوى دعوة قولية والصلاة دعوة فعلية والفعل أقوى من القول وانما كانت دعوة وأمراً لان المقتدى به اذا فعل فعلا كان في قوة قوله افعلوا هذا وقيل المذكور اولا ليس النهى عن الصلاة بل النهى حين الصلاة وهو محتمل ان يكون لها اولغيرها وعامة احوال الصلاة لما انحصرت في تكميل أنفس المصلى بالعبادة وتكميل غيره بالدعوة فنهيه في تلك الحالة يكون عن الصلاة والدعوة معا لذا ذكر في الجملة الثانية انتهى فلا تغفل وجوز الامام كون الخطاب في الكل له عليه الصلاة والسلام وقال في بيان معنى أرأيت ان كان الخ أرأيت ان صار على الهدى واشتغل بامر نفسه اما كان يليق به ذلك اذ هو رجل عاقل ذو ثروة فلو اختار الرأى الصائب والاهتداء والامر بالتقوى اما كان ذلك خيرا له من الكفر بالله تعالى والنهى عن خدمته سبحانه وطاعته عز وجل كأنه تعالى يقول تلهف عليه كيف فوت على نفسه المراتب العلية وقنع بالمراتب الردية واعتبر عصام الدين هذه الجملة توبيخا على تفويت ماينفع وما بعدها توبيخا على كسب ما يضر فقال ان قوله تعالى أرأيت الذى الخ استشهاد لطغيان الانسان ان رآه مستغنيا والرؤية بمعنى الابصار أى أشاهدت الذى ينهى عبدا اذا صلى وعرفت طغيان الانسان المستغنى وانه لا يكفى بكفرانه ويتجاوز الى تكاليف العبد الذى ارسل المنع عن الكفران بالكفران وقوله سبحانه أرأيت ان كان الخ توبيخ له على فوت مالا يعلم كنهه بفوت الهدى والامر بالتقوى يعنى أعلمت انه على اى فوزان كان على الهدى او امر بالتقوى وقوله عز وجل أرأيت ان كذب الخ توبيخ له بما كسب من استحقاق العذاب والبعد عن رب الارباب اى اعلمت انه على أى عقوبة ومؤاخذة وقوله تعالى ألم يعلم الخ تهديد ووعيد شديد بعد التوبيخ على كسب حال الشقى وفوت حال السعيد انتهى وهو كما ترى فتأمل جميع ما تقدم والله تعالى بمراده أعلم ثم ان الآية وان نزلت في أبى جهل عليه اللعنة لكن كل من نهى عن الصلاة ومنع منها فهو شريكه في الوعيد ولا يلزم على ذلك المنع عن النهى عن الصلاة في الدار المغصوبة والاوقات المكروهة لان المنهى عنه في الحقيقة ليس عن الصلاة نفسها بل عن وصفها المقارن ولشدة الاحتياط تحاشى بعضهم عن النهى مطلقا فروى عن أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه انه رأى في المصلى أقواما يصلون قبل صلاة العيد فقال ما رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ذلك فقيل له رضى الله تعالى عنه ألا تنهاهم فقال رضى الله تعالى عنه أخشى أن أدخل تحت وعيد قوله تعالى أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى وفى رواية لا أحب ان أنهى عبدا اذا صلى ولكن أحدثهم بما رأيت من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقد سلك نحو هذا المسلك أبو حنيفة عليه الرحمة فقد روى ان أبا يوسف قال له أيقول المصلى حين يرفع رأسه من الركوع اللهم اغفرلى فقال يقول ربنا لك الحمد ويسجد ولم يصرح بالنهى ويقاس على النهى عن الصلاة النهى عن غيرها من أنواع العبادة ولا فرق بين النهى القالى والنهى الحالى ومنه أن يشغل المرء المرء عن ذلك وقد ابتلى به كثير من الناس ﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي اللعين وزجر له واللام في قوله تعالى ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ موطئة للقسم أى والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أى لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها الى النار يوم القيامة والسفع قال المبرد الجذب بشدة وسفع بناصية فرسه جذب قال عمرو بن معد يكرب

قوم اذا كثر الصياح رأيتهم ✲ مابين ملجم مهره أو سافع

وقال مؤرج السفع الاخذ بلغة قريش والناصية شعر الجبهة وتطلق على مكان الشعر وأل فيها للعهد أو اكتفى بها عن الاضافة وهو معنى كونها عوضا عن المضاف اليه في مثله والكلام كناية عن سحبه الى النار وقول أبي حيان انه عبر بالناصية عن جميع الشخص لايخفى مافيه وقيل المراد لنسحبنه على وجهه في الدنيا يوم بدر وفيه بشارة بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجروه ان لم ينته وقد فعل عز وجل فقد روى انه لما نزلت سورة الرحمن قال صلى الله تعالى عليه وسلم من يقرؤها على رؤساء قريش فقام ابن مسعود وقال أنا يا رسول الله فلم يأذن له عليه الصلاة والسلام اضعفه وصغر جثته حتى قالها ثلاثا وفي كل مرة كان ابن مسعود يقول أنا يارسول الله فأذن له صلى الله تعالى عليه وسلم فأتاهم وهم مجتمعون حول الكعبة فشرع في القراءة فقام أبو جهل فلطمه وشق اذنه وأدماه فرجع وعيناه تدمعان فنزل جبريل عليه السلام ضاحكا فقال له صلى الله تعالى عليه وسلم في ذلك فقال عليه السلام ستعلم فلما كان يوم بدر قال عليه الصلاة والسلام التمسوا أبا جهل في القتلى فرآه ابن مسعود مصروعا يخور فارتقى على صدره ففتح عينه فعرفه فقال لقد ارتقيت مرتقى صعبا يارويعي الغنم فقال ابن مسعود الاسلام يعلو ولا يعلى عليه فقال له قطع رأسه فقال الامين دونك فاقطعه بسيفي فقطعه ولم يقدر على حمله فشق أذنه وجعل فيها خيطا وجعل يجره حتى جاء به الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فجاء جبريل عليه السلام يضحك ويقول يارسول الله أذن باذن والرأس زيادة وكأن تخصيص الناصية بالذكر لان اللعين كان شديد الاهتمام بترجيلها وتطييبها أولان السفع بها غاية الاذلال عند العرب إذ لا يكون إلا مع مزيد التمكن والاستيلاء ولان عادتهم ذلك في البهائم وقرأ محبوب وهرون كلاهما عن أبي عمرو لنسفعن بالنون الشديدة وقرأ ابن مسعود لاسفعن كذلك مع اسناد الفعل الى ضمير المتكلم وحده وكتبت النون الخفيفة في قراءة الجمهور ألفا اعتباراً بحال الوقف فانه يوقف عليها بالالف تشبيها لها بالتنوين وقاعدة الكتابة مبنية على حال الوقف والابتداء ومن ذلك قوله ✡ ومهما تشأ منه فزارة تمنعا ✡ وقوله ✡ يحسبه الجاهل مالم يعلما ✡ وقوله تعالى ﴿ نَاصِيَةٍ ﴾ بدل من الناصية وجاز ابدالها عن المعرفة وهي نكرة لانها وصفت بقوله سبحانه ﴿ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ فاستقلت بالافادة وقد ذكر البصريون أنه يشترط لابدال النكرة من المعرفة الافادة لا غير ومذهب الكوفيين أنها تبدل منها بشرطين اتحاد اللفظ ووصف النكرة وليشمل بظاهره كل ناصية هذه صفتها وهذا مما يتأتى على سائر المذاهب ووصف الناصية بما ذكر مع أنه صفة صاحبها للمبالغة حيث يدل على وصفه بالكذب والخطا بطريق الاولى ويفيد أنه لشدة كذبه وخطئه كأن كل جزء من أجزائه يكذب ويخطأ وهو كقوله تعالى تصف ألسنتهم الكذب وقولهم وجهها يصف الجمال فالاسناد مجازي من اسناد ما للكل الى الجزء وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وزيد بن علي ناصية كاذبة خاطئة بنصب الثلاثة على الشتم والكسائي في رواية برفعها أي هي ناصية الخ ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ النادي المجلس الذي ينتدى فيه القوم أي يجتمعون للحديث ويجمع على أندية والكلام على تقدير المضاف أي فليدع أهل ناديه أو الاسناد فيه مجازي أو أطلق اسم المحل على من حل فيه ومثله في هذا المجلس ونحوه كما قال جرير أو ذو الرمة

لهم مجلس صهب السبال أذلة ✡ سواسية أحرارها وعبيدها

وقال زهير وفيهم مقامات حسان وجوههم ✡ وأندية ينتابها القول والفعل

وهذا اشارة الى ماصح من أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يصلي فقال ألم أنهك فأغلظ عليه الصلاة والسلام له فقال أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي ناديا والامر على مافي البحر للتعجيز والاشارة الى أنه لايقدر

على شيء ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ أي ملائكة العذاب ليجروه الى النار وهو في الاصل الشرط أي أعوان الولاة واختلف فيه فقيل جمع لاواحد له من لفظه كعباديد وقال أبو عبيدة واحده زبنية بكسر فسكون كعفرية وقال الكسائي واحده زبني بالكسر كأنه نسب الى الزبن بالفتح وهو الدفع ثم غير للنسب وكسر أوله كانسي وأصل الجمع زباني فقيل زبانية بحذف احدى ياءيه وتعويض التاء عنها وقال عيسى بن عمر والاخفش واحده زابن والعرب قد تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه وان لم يكن من أعوان الولاة ومنه قوله

مطاعم في القصوى مطاعين في الوغى ✡ زبانية غلب عظام حلومها

وسمي ملائكة العذاب بذلك لدفعهم من يعذبونه الى النار وهذا الدعاء في الدنيا بناء على ماروي من أنه لو دعا ناديه لاخذته الزبانية عيانا والظاهر أن سندع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم ورسم في المصاحف بدون واو لاتباع الرسم للفظ فانها محذوفة فيه عن الوصل لالتقاء الساكنين أولمشاكلة فليدع وقيل انه مجزوم في جواب الامر وفيه نظر وقرأ ابن أبي عبلة سيدعى الزبانية بالبناء للمفعول ورفع الزبانية ﴿كَلَّا﴾ ردع لذلك اللعين بعد ردع وزجر له اثر زجر ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي دم على ما أنت عليه من معاصاته ﴿وَاسْجُدْ﴾ وواظب غير مكترث به على سجودك وهو على ظاهره او مجاز عن الصلاة ﴿وَاقْتَرِبْ﴾ وتقرب بذلك الى ربك وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعا أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد فاكثروا الدعاء وفي الصحيح وغيره أيضا من حديث ثوبان مرفوعا عليك بكثرة السجود فانه لاتسجد لله تعالى سجدة الا رفعك الله تعالى بها درجة وحط عنك بها خطيئة ولهذه الاخبار ونحوها ذهب غير واحد الى أن السجود أفضل أركان الصلاة ومن الغريب أن العز بن عبد السلام من أجلة أئمة الشافعية قال بوجوب الدعاء فيه وفي البحر ثبت في الصحيحين أنه عليه الصلاة والسلام سجد في اذا السماء انشقت وفي هذه السورة وهي من العزائم عند علي كرم الله تعالى وجهه وكان مالك يسجد فيها في خاصة نفسه والله تعالى الموفق

سورة العلق

وهي مكية بإجماع، وهي أوّل ما نزل من القرآن، في قول أبي موسى وعائشة

رضي الله عنهما. وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[١] ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾.

هذه السورة أوّل ما نزل من القرآن؛ في قول معظم المفسرين. نزل بها جبريل على النبيّ ﷺ وهو قائم على حِراء، فعلمه خمسَ آيات من هذه السورة. وقيل: إن أوّل ما نزل ﴿يا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ﴾، قاله جابر بن عبد الله؛ وقد تقدم[٢]. وقيل: فاتحة الكتاب أوّل ما نزل؛ قاله أبو مَيْسَرة الهَمْدانيّ. وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أوّل ما نزل من القرآن

---

(١) من قصيدة لجرير يمدح عبد الملك بن مروان. وتمامه:

وأنـــدى العـــالميـــن بطـــون راح

(٢) راجع ١٩/٥٨ من الطبعة الأولى و ١٩/٥٩ من الطبعة الثانية.

﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حرَّم ربكم عليكم﴾[١] والصحيح الأوّل. قالت عائشة: أوّل ما بُدِىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة[٢]؛ فجاءه الملك فقال: ﴿اقرأ بِاسم ربك الذِي خَلَق، خَلَقَ الإنسان مِن عَلَق، اقرأ وربُّك الأكرمُ﴾. خرجه البخارِيّ.

وفي الصحيحين عنها قالت: أوّل ما بِدىء به رسول الله ﷺ من الوَحْى الرؤيا الصادقة في النوم؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مِثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخَلاء، فكان يخلو بغار حِراء، يتحنث[٣] فيه الليالي ذواتِ العدد، [قبلَ أَنْ يَرْجع إلى أهلِه[٤]] ويتزوّد لذلك؛ ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها؛ حتى فجِئه الحقُّ وهو في غار حِراء، فجاءه الملك، فقال: «اقرأ»: فقال: «ما أنا بقارىء ـ قال ـ فأخذني فغطني[٥]، حتى بلغ مني الجهدُ ثم أرسلني»، فقال: «اقرأ» فقلت: «ما أنا بقارىء». فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني» فقال: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خَلَق. خلَقَ الإنسانَ مِن عَلَق. اقرأ وربك الأكرمُ. الذِي علم بِالقلَمِ. علم الإنسانَ ما لم يعلم﴾ الحديث بكماله. وقال أبو رجاء العُطارِدِيّ: وكان أبو موسى الأشعرِيّ يطوف علينا في هذا المسجد: مسجدِ البصرة، فيُقْعِدنا حِلَقا، فيقرِئنا القرآن؛ فكأني أنظر إليه بين ثوبين له أبيضين، وعنه أخذت هذه السورة: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خَلَق﴾. وكانت أوّلَ سورة أنزلها الله على محمد ﷺ. وروتْ عائشة رضي الله عنها أنها أوّل سورة أنزلت على رسول الله ﷺ، ثم بعدها ﴿ن والقلم﴾ ثم بعدها ﴿يا أيها المدثر﴾ ثم بعدها ﴿والضحى﴾ ذكره الماورِدِيّ. وعن الزُّهرِيّ: أول ما نزل سورة: ﴿اقرأ باسم ربك ـ إلى قوله ـ ما لم يعلم﴾، فحزِن رسول الله ﷺ، وجعل يعلو شواهِق الجبال، فأتاه جبريل فقال له: «إنك نبيُّ الله» فرجع إلى خديجة وقال: «دَثِّروني وصُبُّوا عليّ ماء بارداً»، فنزل ﴿يا أيها المدّثر﴾.

(١) آية ١٥١ سورة الأنعام.

(٢) كذا في «الأصول» ومسلم. وفي البخاري: «الصالحة».

(٣) يتحنث: أي يتعبد. يقال: فلان يتحنث، أي يفعل فعلاً يخرج به من الإثم والحرج.

(٤) زيادة عن الصحيحين.

(٥) الغط: العصر الشديد والكبس.

ومعنى ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أي اقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كل سورة. فمحل الباء من ﴿باسم ربك﴾ النصب على الحال. وقيل: الباء بمعنى على، أي اقرأ على اسم ربك. يقال: فعل كذا باسم الله، وعلى اسم الله. وعلى هذا فالمقروء محذوف، أي اقرأ القرآن، وافتتحه باسم الله. وقال قوم: اسم ربك هو القرآن، فهو يقول ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أي اسمَ ربك، والباء زائدة؛ كقوله تعالى ﴿تَنبُتُ بِالدّهنِ﴾، وكما قال:

سُودُ المَحَاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّورِ[1]

أراد: لا يقرأن السور. وقيل: معنى ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أي اذكر اسمه. أمره أن يبتدىء القراءة باسم الله.

[٢] ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسانَ﴾ يعني ابن آدم. ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أي من دمٍ؛ جمع عَلَقة، والعلقة الدّم الجامد؛ وإذا جرى فهو المسفوح. وقال: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ فذكره بلفظ الجمع؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع، وكلهمْ خُلِقوا من عَلَق بعد النطفة. والعَلَقة: قطعة من دمٍ رَطْب، سميت بذلك لأنها تعلَق لرطوبتها بما تَمُر عليه، فإذا جفت لم تكن عَلَقة. قال الشاعر:

تركناه يَخِر على يديه يمج عليهما عَلَق الوَتِينِ

وخَصّ الإنسانَ بالذكر تشريفاً له. وقيل: أراد أن يبين قدرَ نعمته عليه، بأن خلقه من علقة مَهينة، حتى صار بشراً سَوِيًّا، وعاقلاً مميزاً.

[٣] ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿اقرأ﴾ تأكيد، وتم الكلام، ثم استأنف فقال: ﴿وَرَبّكَ الأَكْرَمُ﴾ أي الكريم. وقال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعَجّل بعقوبتهم. والأوّل أشبه

(١) هذا عجز بيت للراعي، وصدره:
هنّ الحرائر لا ربات أخمرة

بالمعنى، لأنه لما ذكر ما تقدّم من نعمه، دلَّ بها على كرمه. وقيل: ﴿اقرأ وربك﴾ أي اقرأ يا محمد وربك يعينك ويفهمك، وإن كنت غير القارىء. و ﴿الأكرم﴾ بمعنى المتجاوز عن جهل العباد.

[٤] ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ .

فيه ثلاث مسائل:

الأولى ـ قوله تعالى: ﴿الذِي علَّم بالقلمِ﴾ يعني الخط والكتابة؛ أي علم الإنسان الخط بالقلم. ورَوى سعيد عن قتادة قال: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دِين، ولم يصلُح عيش. فدل على كمال كرمه سبحانه، بأنه عَلَّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة، التي لا يحيط بها إلا هو. وما دُوِّنت العلوم، ولا قُيِّدت الحِكم، ولا ضبطت أخبار الأوّلين ومقالاتهم، ولا كتبُ اللَّهِ المُنْزَلة إلا بالكتابة؛ ولولا هي ما ٱستقامت أمور الدين والدنيا. وسُمِّي قلماً لأنه يُقْلَم؛ أي يُقطع، ومنه تقليم الظفر. وقال بعض الشعراء المُحْدَثِين يصف القلم:

فكأنه والحِبْرُ يخضِبُ رأسَهُ شيخٌ لوصل خَرِيدةٍ يتَصَنَّعُ
لِمَ لا[١] ألاحظه بعين جَلالة وبه إلى الله الصحائفُ ترفعُ

وعن عبد الله بن عمر قال: يا رسول الله، أأكتب ما أسمع منك من الحديث؟ قال: «نعم فاكتب، فإن الله عَلَّم بالقلم». وروى مجاهد عن أبي عمر قال: خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده، ثم قال لسائر الحيوان: كن فكان: القلم، والعَرْش، وجنة عَدْن، وآدم عليه السلام. وفيمن علمه بالقلم ثلاثة أقاويل: أحدها ـ أنه آدم عليه السلام؛ لأنه أوّل من كتب، قاله كعب الأحْبار. الثاني ـ أنه إدريس، وهو أول من كتب. قاله الضحاك. الثالث: أنه أدخل كل مَن كتب بالقلم؛ لأنه ما عَلِم إلا بتعليم الله سبحانه، وجمع بذلك نعمته عليه في خَلْقه، وبين نعمته عليه في تعليمه؛ استكمالاً للنعمة عليه.

(١) في «الأصول»: (ألا) في موضع (لم لا)، ولعله تحريف.

الثانية ـ صح عن النبيّ ﷺ من حديث أبي هُريرة، قال: لما خلق الله الخلق كتب في كتابه ـ فهو عنده فوق العرش ـ: «إن رحمتي تغلب غضبي». وثبت عنه عليه السلام أنه قال: «أوّلُ ما خلق الله: القلمَ، فقال له اكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذكر فوق عرشه». وفي «الصحيح» من حديث ابن مسعود: [أنه][١] سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً فصوّرها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها، ثم يقول، يا رب، أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب المَلَك ثم يقول: يا رب أَجَلَه، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول يا رب رزقَه، ليقضي ربك ما شاء، ويكتب المَلَك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أُمر ولا ينقص، وقال تعالى: ﴿إنّ عليكُمْ لحَافظينَ. كِراماً كاتبين[٢]﴾».

قال علماؤنا: فالأقلام في الأصل ثلاثة: **القلم الأوّل** ـ الذي خلقه الله بيده، وأمره أن يكتب. **والقلم الثاني** ـ أقلام الملائكة، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال. **والقلم الثالث** ـ أقلام الناس، جعلها الله بأيديهم، يكتبون بها كلامهم، ويصلون بها مآربهم. وفي الكتابة فضائل جمة. والكتابة من جملة البيان، والبيان مما اختص به الآدميّ.

الثالثة ـ قال علماؤنا: كانت العرب أقل الخلق معرفة بالكتاب، وأقل العرب معرفة به المصطفى ﷺ؛ صُرِف عن علمه، ليكون ذلك أثبت لمعجزته، وأقوى في حجته، وقد مضى هذا مبيناً في سورة ﴿العنكبوت﴾[٣]. وروى حَمَّاد بن سَلَمة عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفهري، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تُسْكِنُوا نساءكم الغُرَف، ولا تعلموهن الكتابة». قال علماؤنا: وإنما حذرهم النبيّ ﷺ ذلك، لأن في إسكانهن الغُرَف تطلعاً إلى الرجل؛ وليس في ذلك تحصين لهنّ ولا تستر. وذلك أنهنّ لا يملكن أنفسهنّ حتى يشرفن على الرجل؛ فتَحدثَ الفتنة والبلاء؛ فحذرهم أن يجعلوا لهن غُرَفاً ذريعة إلى الفتنة.

---

(١) زيادة لتكملة العبارة. (٢) آية ١٠ سورة الانفطار. (٣) راجع ١٣/ ٣٥١.

وهو كما قال رسول الله ﷺ: «ليس للنساء خيرٌ لهنّ من ألا يراهنّ الرجال، ولا يرين الرجال». وذلك أنها خُلقت من الرجل، فنهْمتُها في الرجل، والرجل خلقت فيه الشهوة، وجُعلت سكناً له، فغير مأمون كل واحد منهما في صاحبه. وكذلك تعليم الكتابة ربما كانت سبباً للفتنة، وذلك إذا عُلِّمَتِ الكتابة كتبت إلى من تَهوَى. والكتابة عين من العيون، بها يبصر الشاهد الغائب، والخط هو آثار يده. وفي ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطلق به اللسان، فهو أبلغ من اللسان. فأحب رسول الله ﷺ أن ينقطع عنهنّ أسباب الفتنة؛ تحصيناً لهنّ، وطهارة لقلوبهنّ.

[٥] ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

قيل: ﴿الإنسان﴾ هنا آدم عليه السلام. علمه أسماء كل شيء؛ حسب ما جاء به القرآن في قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾(١). فلم يبق شيء إلا وعلَّم سبحانه آدمَ أسمَه بكل لغة، وذكره آدم للملائكة كما عُلِّمه. وبذلك ظهر فضله، وتبيّن قدره، وثبتت نبوّته، وقامت حجة الله على الملائكة وحجتُه، وأمتثلت الملائكة الأمر لِمَا رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة، وسمعت من عظيم الأمر. ثم توارثت ذلك ذريته خلفاً بعد سلف، وتناقلوه قوماً عن قوم. وقد مضى هذا في سورة ﴿البقرة﴾(٢) مستوفًى والحمد لله. وقيل: ﴿الإنسان﴾ هنا الرسول محمد ﷺ؛ دليله قوله تعالى: ﴿وعَلَّمك ما لم تَكُنْ تعلم﴾(٣). وعلى هذا فالمراد بـ ﴿سعلّمك﴾ المستقبل(٤)؛ فإن هذا من أوائل ما نزل. وقيل: هو عام لقوله تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً﴾(٥).

[٦] ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾.

[٧] ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾.

قوله تعالى: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى﴾ إلى آخر السورة. قيل: إنه نزل

---

(١) آية ٣١ سورة البقرة. (٢) راجع ١/٢٧٩ طبعة ثانية.

(٣) آية ١١٣ سورة النساء. (٤) في نسخة: المشكل. (٥) آية ٧٨ سورة النحل.

في أبي جهل. وقيل: نزلت السورة كلها في أبي جهل؛ نهى النبيّ ﷺ عن الصلاة؛ فأمر الله نبيه ﷺ أن يصلي في المسجد ويقرأ باسم الرب. وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل. ويجوز أن يكون خمس آيات من أوّلها أوّل ما نزلت، ثم نزلت البقية في شأن أبي جهل، وأمر النبيّ ﷺ بضم ذلك إلى أوّل السورة؛ لأن تأليف السوَر جرى بأمر من الله. ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وٱتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾[1] آخرِ ما نزل، ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل. و ﴿كَلاَّ﴾ بمعنى حَقًّا؛ إذ ليس قبله شيء. والإنسان هنا أبو جهل. والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان. ﴿أَنْ رآه﴾ أي لأن رأى نفسه ٱستغنى؛ أي صار ذا مال وثروة. وقال ٱبن عباس في رواية أبي صالح عنه، قال: لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون، أتاه أبو جهل فقال: يا محمد تزعم أنه من ٱستغنى طغى؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهباً، لعلنا نأخذ منها، فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك. قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال: «يا محمد خيِّرهم في ذلك فإن شاءوا فعلنا بهم ما أرادوه؛ فإن لم يسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة». فعلم رسول الله ﷺ أن القوم لا يقبلون[2] ذلك؛ فكفَّ عنهم إبقاء عليهم. وقيل: ﴿أَنْ رَآه ٱسْتغنَى﴾ بالعشيرة والأنصار والأعوان. وحذف اللام من قوله ﴿أن رآه﴾ كما يقال: إنكم لَتطْغُون إن رأيتم غِناكم. وقال الفراء: لم يقل رأى نفسه، كما قيل قتل نفسه؛ لأن رأى من الأفعال التي تريد ٱسماً وخبراً، نحو الظن والحِسبان، فلا يقتصر فيه على مفعول واحد. والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول: رأيتني وحسبتني، ومتى تراك خارجاً، ومتى تظنك خارجاً. وقرأ مجاهد وحميد وقنبل عن ٱبن كثير ﴿أن رأهُ ٱسْتَغْنَى﴾ بقصر الهمزة. الباقون ﴿رآه﴾ بمدّها، وهو الاختيار.

(١) آية ٢٨١ سورة البقرة.

(٢) في نسخة من الأصل: «يقبلون».

[٨] ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۝٨﴾.

أي مرجع مَنْ هذا وصْفُه، فنجازيه. والرجعى والمرجع والرجوع: مصادر؛ يقال: رجع إليه رجوعاً ومَرْجعاً، ورُجْعَى؛ على وزن فُعْلى.

[٩] ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩﴾.

[١٠] ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾.

قوله تعالى: ﴿أَرأيتَ الذي يَنْهَى﴾ وهو أبو جهل ﴿عَبداً﴾ وهو محمد ﷺ. فإن أبا جهَل قال: إنْ رأيت محمداً يصلِّي لأَطأَنّ على عنقه؛ قاله أبو هُريرة. فأنزل الله هذه الآيات تعجباً[1] منه. وقيل: في الكلام حذف؛ والمعنى: أَمِنَ هذا الناهِي عن الصلاة من العقوبة.

[١١] ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١﴾.

[١٢] ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾.

أي أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد على هذه الصفة، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة هالكاً؟!

[١٣] ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣﴾.

[١٤] ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾.

يعني أبا جهل كذّب بكتاب الله عز وجل، وأعرض عن الإيمان. وقال الفرّاء: المعنى ﴿أرأيتَ الذي ينهى. عبداً إذا صلى﴾ وهو على الهدى، وآمر بالتقوى، والناهي مكذِّب متولّ عن الذكر؛ أي فما أعجب هذا! ثم يقول: وَيْله! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى؛ أي يراه ويعلم فعله؛ فهو تقرير وتوبيخ. وقيل: كل واحد من ﴿أرأيت﴾ بدل من الأوّل. و ﴿أَلَمْ يعلم بأنّ اللَّهَ يَرَى﴾ الخبر.

[١٥] ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥﴾.

[١٦] ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦﴾.

---

(١) أي تعجيباً منه، وهو إيقاع المخاطب وحمله على التعجب «عن حاشية الجمل».

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي أبو جهل عن أذاك يا محمد. ﴿لَنَسْفَعاً﴾ أي لنأخذن ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ فلنذلنه. وقيل: لنأخذن بناصيته يوم القيامة، وتُطْوَى مع قدميه، ويطرح في النار، كما قال تعالى: ﴿فيؤخذ بِالنواصِي والأقدامِ﴾[1]. فالآية ـ وإن كانت في أبي جهل ـ فهي عِظة للناس، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة. وأهل اللغة يقولون: سَفَعْتَ بالشيء: إذا قبضت عليه وجذبته جذباً شديداً. ويقال: سَفَعَ بناصية فرسه. قال:

قَـوْمٌ إذا كَثُـر الصيـاح رأيتهـمْ مِنْ بينِ مُلْجِم مُهْرِهِ أو سافِـعِ[2]

وقيل: هو مأخوذ من سَفَعَتْه النار والشمس: إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد؛ كما قال:

أثـافِيَّ سُفعاً فـي مُعَرَّسِ مِرْجَـلٍ ونَؤْيٌ كجِذم الحوض أثلَمَ خاشِـع[3]

والناصية: شعر مقدّم الرأس. وقد يعبر بها عن جملة الإنسان؛ كما يقال: هذه ناصية مباركة؛ إشارة إلى جميع الإنسان. وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته. وقال المبرّد: السَّفْع: الجذب بشدّة؛ أي لَنَجُرَّن بناصيته إلى النار. وقيل: السَّفْع الضرب؛ أي لنلطُمَنّ وجهه. وكله متقارب المعنى. أي يجمع عليه الضرب عند الأخذ؛ ثم يجرّ إلى جهنم. ثم قال على البدل: ﴿ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ﴾

---

(١) آية ٤١ سورة الرحمن.

(٢) البيت لحميد بن ثور الهلالي الصحابي. ويروى: «ما بين ملجم...»

(٣) هكذا ورد البيت في جميع نسخ الأصل وتفسير ابن عادل، وهو ملفق من قصيدتين. فالشطر الأوّل من معلقة زهير. والبيت كما في ديوانه ومعلقته:

أثـافي سفعـاً في معرس مـرجـل ونـؤيـا كجـذم الحـوض لـم يتثلـم

والشطر الثاني من قصيدة للنابغة: والبيت كما في ديوانه:

رمـاد ككحـل العيـن لأيـا أبينـه ونؤي كجذم الحوض أثلم خاشع

والأثلم: المتثلم. والخاشع: اللاصق بالأرض. والأثافي؛ الحجارة التي تجعل عليها القدر؛ الواحدة أثفية. والسفع: السود. والمعرّس: الموضع الذي فيه المرجل. والمرجل: كل قدر يطبخ فيها، من حجارة أو حديد أو خزف أو نحاس. والنؤي: حاجز يرفع حول البيت من تراب لئلا يدخل البيت الماء من خارج. وجذم الحوض: حرفه وأصله ولم يتثلم: يعني النؤي قد ذهب أعلاه، ولم يتثلم ما بقي منه، أي يتكسر.

أي ناصية أبي جهل كاذبة في قولها، خاطئةٍ في فعلها. والخاطىء معاقب مأخوذ. والمخطىء غير مأخوذ[١]. ووصف الناصيةِ بالكاذبة الخاطئة، كوصفِ الوجوه بالنظر في قوله تعالى: ﴿إلى ربها ناظِرة﴾[٢]. وقيل: أي صاحبها كاذب خاطىء؛ كما يقال: نهاره صائم، وليله قائم؛ أي هو صائم في نهاره، ثم قائم في ليله.

[١٧] ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ ﴾.

[١٨] ﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلْيدعُ نادِيَهُ﴾ أي أهل مجلسه وعشيرته، فليستنصر بهم. ﴿سَنَدْعُ الزَّبانِية﴾ أي الملائكة الغِلاظ الشداد ـ عن ابن عباس وغيره ـ واحدهم زِبْنِيّ؛ قاله الكسائي. وقال الأخفش: زابن. أبو عبيدة: زِبْنِية. وقيل: زَبَانيّ. وقيل: هو اسم للجمع؛ كالأبابيل والعباديد. وقال قتادة: هم الشُّرَط في كلام العرب. وهو مأخوذ من الزَّبْن وهو الدفع؛ ومنه المُزابنة[٣] في البيع. وقيل: إنما سموا الزبانية لأنهم يعملون بأرجلهم، كما يعملون بأيديهم؛ حكاه أبو الليث السَّمَرْقندِيّ ـ رحمه الله ـ قال: ورُوِي في الخبر أن النبيّ ﷺ لما قرأ هذه السورة، وبلغ إلى قوله تعالى: ﴿لنسفعا بالناصية﴾ قال أبو جهل: أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربّك. فقال الله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نادِيَهُ، سَنَدْع الزَّبانِيةَ﴾. فلما سمع ذِكر الزبانية رجع فزِعا؛ فقيل له: خَشِيتَ منه! قال لا! ولكن رأيت عنده فارساً يُهدّدني بالزَّبانية، فما أدري ما الزبانية، ومال إليّ الفارس، فخشِيت منه أن يأكلني. وفي الأخبار أن الزبانية رؤوسهم في السماء وأرجلهم في الأرض، فهم يدفعون الكفار في جهنم. وقيل: إنهم أعظم الملائكة خَلْقاً، وأشدّهم بطشاً. والعرب تطلِق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه. قال الشاعر:

مَطاعيمُ في القُصْوَى مَطَاعينَ في الوَغَى زَبـانيـةٌ غُلْـب عِطـامٌ حلُـومُهـا[٤]

---

(١) الخاطىء: من تعمد لما لا ينبغي؛ أي القاصد للذنب. والمخطىء: من أراد الصواب فصار إلى غيره.

(٢) آية ٢٣ سورة القيامة.

(٣) هي بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر، ونهى عنها لما يقع فيها من الغبن والجهالة.

(٤) غلب: جمع أغلب، وهو الغليظ الرقبة. والعرب تصف السادة بغلظ الرقبة وطولها. والحلوم: جمع الحلم وهو العقل.

وعن عكرمة عن ابن عباس: ﴿سَنَدْعِ الزَّبانِية﴾ قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً يصلي لأطأنّ على عنقه. فقال النبيّ ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عِياناً». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب. ورَوى عِكرمة عن ابن عباس قال: مر أبو جهل على النبيّ ﷺ وهو يصلّي عند المَقام، فقال: ألم أنهك عن هذا يا محمد! فأغلظ له رسول الله ﷺ؛ فقال أبو جهل: بأيّ شيء تهدّدني يا محمد! والله إني لأكثر أهل الوادي هذا نادياً؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿فلْيَدْعُ نادِيه. سندع الزبانية﴾. قال ابن عباس: والله لو دعا نادِيَه لأخذته زبانية العذاب من ساعته. أخرجه الترمذي بمعناه، وقال: حسن غريب صحيح. والنادي في كلام العرب: المجلس الذي ينتدِي فيه القوم؛ أي يجتمعون، والمراد أهل النادي؛ كما قال جرير:

لهم مَجلِسٌ صُهْبُ السِّبالِ أذِلةٌ[(١)]

وقال زهير:

وفيهمْ مَقاماتٌ حِسان وُجُوههم[(٢)]

وقال آخر:

واسْتَبَّ بعدَك يا كُلَيبُ المجلِسُ[(٣)]

وقد ناديت الرجل أنادِيه إذا جالسته. قال زهير:

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادِي   أمامَ الحي عَقْدُهما سَواءُ

---

(١) تمامه:

سواسية أحرارها وعبيدها

والبيت لذي الرّمة لا لجرير. و«صهب»: حمر. و«السبال»: الشعر الذي عن يمين الشفة العليا وشمالها. (٢) تمام البيت:

وأندية ينتابها القول والفعل

المقامات: المجالس؛ وإنما سميت المقامات لأن الرجل كان يقوم في المجلس، فيحض على الخير، ويصلح بين الناس. وأندية: جمع الندى، وهو المجلس أيضاً، وفيه الشاهد.

(٣) هذا عجز بيت المهلهل يرثي أخاه كليباً. وصدره:

نبئت أن النار بعدك أوقدت

[١٩] ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾.

﴿كَلّا﴾ أي ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل. ﴿لا تُطعْهُ﴾ أي فيما دعاك إليه من ترك الصلاة. ﴿واسجد﴾ أي صل لِلّه ﴿وٱقترِب﴾ أي تقرّب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة. وقيل: المعنى: إذا سجدت فٱقترب من الله بالدعاء. روى عطاء عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه، وأحبه إليه، جَبْهَتُه في الأرض ساجداً لله».

قال علماؤنا: وإنما[كان] ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة؛ ولله غاية العِزة، وله العزة التي لا مقدار لها؛ فكلما بَعُدْت من صفته، قربت مِن جنته، ودنوت من جواره في داره. وفي الحديث الصحيح: أن النبيّ ﷺ قال: «أمّا الركوع فعظموا فيه الرب. وأما السجود فٱجتهدوا في الدعاء، فإنه قِمَنٌ[1] أن يُسْتجاب لكُم». ولقد أحسن من قال:

وإذا تـذللـتِ الـرقـاب تـواضُعـاً　　　منـا إليـك فعِـزُّهـا فـي ذُلّهـا

وقال زيد بن أسلم: اسجد أنت يا محمد مصلياً، واقترب أنت يا أبا جهل من النار.

قوله تعالى: ﴿واسجد﴾ هذا من السجود. يحتمل أن يكون بمعنى السجود في الصلاة، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة في هذه السورة. قال ٱبن العربيّ: «والظاهر أنه سجود الصلاة» لقوله تعالى: ﴿أرأيتَ الذِي ينهى عبداً إذا صلى ـ إلى قوله ـ كلا لا تُطِعه وٱسجد وٱقترِب﴾، لولا ما ثبت في «الصحيح» من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال: سجدت مع رسول الله ﷺ في ﴿إذا السماء ٱنشقت﴾، وفي ﴿ٱقرأ باسم ربك الذِي خلق﴾ سجدتين، فكان هذا نصاً على أن المراد سجود التلاوة. وقد رَوى ٱبن وهب، عن حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدلة، عن زِرّ بن حُبَيش، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: عزائم السجود أربع: ﴿الٓم﴾ و ﴿حم. تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ و ﴿النجم﴾ و ﴿اقرأ

(١) يقال: قمن وقمِن بفتح الميم وكسرها، والذي بالكسر يثنى ويجمع كقمين؛ أي خليق وجدير.

باسم ربك﴾. وقال ٱبن العربيّ: «وهذا إن صح يلزم عليه السجود الثاني من سورة ﴿الحج﴾، وإن كان مقترناً بالركوع؛ لأنه يكون معناه ٱركعوا في موضع الركوع، وٱسجدوا في موضع السجود». وقد قال ٱبن نافع ومطَرِّف: وكان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة من ﴿ٱقرأ باسم ربك﴾ وٱبن وهب يراها من العزائم.

قلت: وقد روينا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن ٱبن عمر قال: لما أنزل الله تعالى ﴿ٱقرأ باسم ربك الذِي خلق﴾ قال رسول الله ﷺ لمُعاذ: «اكتبها يا معاذ» فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون ـ وهي الدواة ـ فكتبها معاذ؛ فلما بلغ ﴿كلا لا تطِعه وٱسجد وٱقترِب﴾ سجد اللوح، وسجد القلم، وسجدت النون، وهم يقولون: اللهم ٱرفع به ذِكراً، اللهم ٱحْطِطْ به وِزراً، اللهم ٱغفر به ذنباً. قال معاذ: سجدت، وأخبرت رسول الله ﷺ، فسجد.

ختمت السورة. والحمد لله على ما فتح ومنح وأعطى. وله الحمد والمِنة.